



تاريخ الصحافة

تأليف : أميل براقان

مصر اليوم أكبر قوة بفضل

ايها الاخوة : لنفكر جميعا اليوم فى وطننا ،
فى مصر ، وليكن هدف كل منا ان يحيا حياة
شريفة كريمة ، هذه هى سياستنا التى اعلناها
وهذه هى اهدافنا التى آمنا بها : حياة
شريفة كريمة

مصر اعلنت سياستها

لقد اعلنت مصر سياستها الحرة المستقلة
التى تنبع منها ، وصممت على ان تسير فى
هذه السياسة ، وكان كل ذلك من اجل هدف
اكبر ، هو اقامة حياة تسودها الرفاهية لجميع
ابناء الوطن

ولكن هل تركنا الاستعمار نعمل من اجل
هذا الهدف الكبير ؟!
كان الاستعمار لنا دائما بالمرصاد .. ك
استعمار يريد منا ان نكون اذلاء تابعين
حياة جردت من الشرف ، ومن الكرامة
كنا ننادي بالسلام ، وكنا نقول اننا

البقية ص ٥ عمود ١



ترجمه : محمد إسماعيل محمد
راجعه : الدكتور محمود نجيب أبو الليل



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر يناير 2018 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي



الألف كتاب (١١٨)

تاريخ الصحافة

باشراف ادارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

هذه ترجمة كتاب :

HISTOIRE DU J URNALISME

Par

Emile Boivin

(Que Sais - je ?)

1949

الألف كتاب (١١٨)

تاريخ الصحافة

تأليف

اميل بواقان

ترجمة

محمد اسماعيل محمد

مراجعة

دكتور محمود نجيب ابو الليل

نشرته
الدار المصرية للطباعة والنشر
١٠ ميدان التحرير ت ٢٤٧٧٠ الاسكندرية
٨ شارع ٢٦ يوليو ت : ٤٢٧٢٥ القاهره

مقـــدمه

أميل بوافان من المؤرخين الفرنسيين الذين عنوا كل العناية بالتأريخ للصحافة . وإن كان قد وجه كل اهتمامه إلى تاريخ الصحافة فى بلاده . وكان شأنه فى التأريخ شأن غـيره من العلمـاء والباحثين فى شئون الصحافة إذ ربط بين تاريخ الصحف والتاريخ السياسى ما دام كل منهما يصور جوانب تصور الحضارة الانسانية والفكر البشرى . والواقع أن هذين التاريخين لا ينفصلان فكلما كثرت حوادث السياسة وتقلباتها كلما ازدهرت الصحف وراحت تسجل هذه الحوادث وتعلق عليها . واشتد إقبال القراء على الاطلاع عليها رغبة منهم فى الوقوف على ما يدور على مسرح حيـاتهم من مفاجئات واحـداث وما تخبئه لهم الأيام من حرية وكبت وغنى وفقر ويسر وعسر .

وهذا الـكتاب الذى نقدم ترجمته للقراء سفر وسط لاهو بالطويل الممل ولا هو بالموجز المقل ضم بين دفتيه تاريخ الصحافة فى فرنسا منذ نشأتها حتى نهـاية عام ١٩٤٨ كما لم يغفل الـكلام عن تاريخ الصحف الفرنسية التى نشرت خارج فرنسا، والاشارة إلى تاريخ الصحافة الأجنبية فى غـير فرنسا غـير أن أشارته إلى تاريخ الصحافة غـير الفرنسية كانت غير كافية وذلك بسبب اهتمامه بتاريخ الصحافة الفرنسية وحدها.

وعالج فى كتابه نشأة الصحيفة المطبوعـة منذ أسس « تيوفراست رينودو » جريدته « لاجازيت » فى ٣٠ مايو من عام ١٦٣١، وماتلا

صدورها من ظهور غيرها من الصحف وما صاحب ذلك من تضييق على حرية الفكر والرأى والكتابة ورقابة تقل صرامتها حينا وتشتد فى كثير من الأحايين .

ومضى الكاتب أمينافى سرده لمفاجئات تاريخ الصحافة فى القرن الثامن عشر حيث كانت الصحافة آخذة فى تحطيم القيود التى كانت تقف فى طريق نموها وأزدهارها وما أن وافت الثورة الفرنسية حتى كانت الصحف فى جميع أنحاء العالم قد أصبحت قوة لا يستهان بها فى مصائر الدول والشعوب .

وما أن انتصف القرن التاسع عشر حتى كان التطور الاقتصادى قد أحدث انقلابا عنيفا فى الوسائل الفنية فى الصحافة من حيث الاخراج والطباعة والصور والالوان ورخص اثمان الورق وقلة تكاليف الطبع وادخال البخار ثم الكهرباء فى الآلات التى تستخدمها الصحف مما جعل الصحف فى متناول كل يد لرخص ثمنها وقلة تكاليفها ثم جاء عامل مهم خطير آخر وهو ازدياد الوعى عند الناس إذ أخذت الجهالة والأمية فى الاختفاء و كثرت المدارس والجامعات وحصلت الشعوب على قسط كبير من الحرية جعل الصحف ضرورة من ضرورات الحياة بعد أن أصبحت الوسيلة السهلة فى التعبير عن الفكر والثبت الأصيل لجهاد الكتاب والقراء على السواء .

وتحدث المؤلف عن الظروف التى مرت بها الصحافة الفرنسية فى ظل الجمهورية الثانية والامبرطورية الثانية التى حكم فيها لويس نابليون

بونابرت وماصاحب ذلك من صدمات عنيفة أصيبت بها الصحافة وحرية الفكر على وجه العموم ورجوع إلى الوراء ثم تقدم طفيف إلى الأمام .

وطرق ما سماه بالصحافة الحديثة بعد حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا حتى قيام الحرب العالمية الأولى فى سنه ١٩١٤ . وتكلم فى تسلسل طيب عن نشأة النقابات الصحفية ورابطات الصحفيين والاتحادات القومية والدولية للصحافة .

وخرج من ذلك إلى الحديث عن الصحافة خلال الحرب العالمية الأولى وعن الدور الذى قامت به فى سبيل نصرة قضية الحلفاء ومقاومة المحتلين من الألمان لأرض فرنسا وما لاقاه الصحفيون من عنت وأسر وسجن وتشريد من الغزاة الألمان .

وكان الكاتب موفقا فى الحديث عن الصحافة بين الحربين العالميتين وما أصابها من تطور وتقدم سريع وعن تضامن الصحفيين فى تدعيم حقوقهم وأعلاء شأن مهنتهم وعن استعمال اللاسلكى والاذاعة فى نشر الأنباء وعما بدأ من نضال بين الصحفيين والراديو فى هذه الناحية .

واستطرد من ذلك إلى الحديث عن الصحافة خلال الحرب العالمية الثانية من سنة ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٤٥ وما قامت به من دور خطير فى فرنسا المحتلة وغير المحتلة وفى خارج فرنسا حتى انتهى الأمر إلى النصر النهائى .

وأنهى مؤلفه بسرد تاريخ الصحافة خلال حكم الجمهورية الرابعة فى فرنسا

بعد أن عادت الأمور إلى نصابها عقب أزمات الحرب العنيفة .

وهناك كلمة أخيرة رأيت من واجبي تسجيلها وهى أن الأستاذ محمد اسماعيل محمد قد وفق فى نقل هذا المؤلف القيم إلى اللغة العربية وكان أمينا فى ترجمته حريصا كل الحرص على ألا تفوته عبارة أو فكرة فضلا عن الجهد المشكور الذى بذله فى وضع الهوامش وترجمة المصطلحات .

دكتور

محمود نجيب ابو الليل

مقـــدمة

كتب سانت بيف فى مقال له بمجلة العالمين فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٣٩ يقول :

« ينبغى أن يكتب تاريخ الصحف . . فقـد حان الوقت لتدوين هذا التاريخ ، بل لقد أصبح الوقت متأخراً ويخشى الا يمكن انجازه فيما بعد . إذ أن الفترة التى انهارت فيها قوة الصحافة قد حلت بالفعل بعد أن مثل Bayle (١) اصدق تمثيل عصرها الذهبى وبعد أن شهد عهـد لويس الرابع عشر فيضا من الصحف، كان جديراً بالتسجيل والتأريخ. وأما عن المشـروع الذى اقترحه فى هذه اللحظة والذى افترضه ، ذلك الحلم اللذيذ الذى يداعبنى أمام قرطاسى واعنى تسجيل تاريخ الصحف بمـا فيه من نقص وركاكة لا مفر منها : هل سيتم ؟ إنى أشك فى ذلك قليلاً .. ..

ولـكن لنحاول ، ولنضع أمامنا تلك السطور التى سبق لنا ذكرها فإن جاء عرضنا غير واف وغير صحيح فإن فى مجال النقد خير عوض عما اغفلناه مادمنا نعترف بأن هذين العيبين لامحيص عنهما . »

---

(١) بيير بيل كاتب فرنسى (١٦٤٧ ــ ١٧٠٦) الف القاموس التاريخى الذى تكشف روح النقد فيه عن مدى حرية الفكر التى سادت القرن الثامن عشر .

وإذا كان المقصود من عبـــارة تاريخ الصحافة هو تاريخ إذاعة الأخبار يوما بيوم فمن الواضح أن هذا التاريخ يبدأ مع بدء الانسانية.

وقد كتب روبيه كولار يقول «أن الصحيفة ضـرورة اجتماعية أكثر فائدة من أى نظام سياسى».

والواقع أن تاريخ الصحف وهو سلسلة من التقلبات ليس الاجزاء من التاريخ العام ، فمنه يتلقى الايضاحات التى لابد منها .. وهو بدوره يشرح بعض الوقائع السياسية والاجتماعية التى لولاه لساء فهمنا لأصولها على أننا سنحاول جهد الطاقة الا نفسد على سانت ـ بيف حلمه اللذيذ.

الفصل الأول

تبادل الأنباء فى العهود القديمة

لعل من الممكن أن نصف الصحيفة بذلك التعبير المشهور ، ونعنى به أنها «قديمة مثل الدنيا» ، لو سلمنا بما يقوله المؤرخ اليهودى فلافيوس جوزيف الذى يؤكد انه كان للبابليين مؤرخون مكلفون بتسجيل الحوادث التى اعتمد عليها بيروز فى القرن الثالث قبل الميلاد فى كتابة تاريخ الكلدانيين(١) .

ويؤكد فولتير ـ ولو أنه ليس هناك ما يثبت تأكيده ـ أنه كانت فى الصين منذ زمن سحيق صحف ومجلات .

ولا يحدثنا التاريخ عن الطريقة التى استخدمها الاثينيون فى تداول الأنبـــاء اليومية وأن كان الاستنتاج يذهب إلى أن الحياة التى كانوا يمضونها راضين فى الميادين العامة كانت تمكنهم من تداول الأنبـــاء شفويا والتعليق عليها فيما بينهم دون أدنى حاجة إلى تدوينها .

وأما روما فلم يكن فيها خلال عدة قرون من مصدر للاعلام سوى الدوريات البابوية . فكان البابا يجمع كل إحداث العـام ويسجلها على

---

(١) ايوجين هاتان « تاريخ الصحافة السياسى والأدبى » (١٨٥٩) .

سبورة بيضـــاء يعرضها فى داره حيث يحضر المواطنون للاحاطة علما بما فيهـا ..

وحينما اتسعت رقعة الامبراطورية الرومانية لم يعد كافيـــا اعلام الشعب بما يجرى داخل أسوار المدينة وبات من الواجب توجيه الرأى العام فى الأقاليم الجـديدة وبذلك أصبح القول الشفهى والسبورة المنشورة غير كافيين للقيام بهذه المهمة . ومن ثم نشأت النشرة العـامة وهى ضرب من الأوراق العامة التى تعد أصلا للجريدة الرسمية الحالية .

ومنذ ذلك الحين سار التقدم بخطى سريعة فقد أمر قيصر بتدوين ونشر ما يجـرى كل يوم بين جدران مجلس الشيوخ وما يقع للشعب من أحداث .. وبذلك حلت النشرة اليومية محل الحوليات الـكبرى وكانت تروى كل الحوادث حتى اقلها شأنا : مثل الاحتفـالات الدينية والحرائق وأحكام الاعدام وأخبار الافلاس وأنباء طويلى العمر وأخبار الولود من النـاس .

غير أن الصحف قد اختفت حينما سقطت الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثاني

نشأة الجريدة المطبوعة

جازيت لتيوفراست رينودو[1] ـ الصحف الصغيرة
الصحف الفرنسية التي تصدر خارج فرنسا ـ الصحافة الأجنبية

ظهرت في انجلترا منذ القرن الثالث عشر صناعة حقيقية للخبر المخطوط ، (أصل التعبير الحديث الذي يطلق على «الأنباء المكتوبة باليد») ثم ظهر هذا النوع من الاعلام بعد ذلك بقرنين وانتشر على نطاق عملي واسع في كل من ألمانيا وايطاليا ، وكان النبلاء يدفعون في سخاء ثمن الأخبار المخطوطة وخاصة في البندقية حيث كان يطلق عليها اسم المنشورات المخطوطة avvisi وظهرت في فرنسا من عام ١٤٠٩ إلى عام ١٤٤٩ «جريدة بورجوازى» باريس وكانت مليئة بأخبار الغيبة والفضائح والقصص والنشرات الجوية عن حالة المطر والطقس .

---

(١) تيوفراست رينودو (١٥٨٦ ـ ١٦٥٣) طبيب ومؤرخ فرنسي تحمل اسمه في الوقت الحاضر بفرنسا جائزة تمنح كل عام لأحسن كتاب في الصحافة أو أحسن تحقيق صحفي .

واحدث اكتشاف المطبعة فى عام ١٤٣٦ ثورة فى وسائل نشر الأنباء واذاعتها .

الرقابة الأولى : وسرعان مانشأت مشكلة الحرية التى شغلت بال الناشرين والقراء والحاكمين ، فمنذ القرن السادس عشر نشطت الرقابة وترجع أول الاجراءات الشديدة ضد حرية الطباعة والصحافة إلى المعارك الدينية الأولى وإلى حكم فرنسوا الأول وهنرى الثانى . وكان أول رقيب هو ميللن دى سانجليه الذى كان قسا بقرية ركاو ثم أمينا لمكتبة فرنسوا الأول ورائدا له وكان شاعرا هجاء داعرا غزلا (١) .

ولم يكن التشريع فى يوم من الأيام قاسيا على الصحافة مثل ما كان قاسيا فى القرن السادس عشر حيث فرض عقوبات بلغت حد الأعدام ولكن الواقع أيضا أن حرفية القانون لم تخالف ولم تخفف عند التنفيذ مثل ما حدث فى تلك الأيام .

ولتفادى الرقابة عاد الاتجاه إلى التوزيع الخفى للاخبار المخطوطة وكان محرروها يطاردون بلاهوادة تطبيقا لأوامر البابوات بيوس الخامس وجريجوار الثالث عشر وسكستى كونت .

نشأة الجريدة فى فرنسا : كانت العلاقات حتى نهاية القرن الخامس عشر مازالت ضئيلة بين سائر الاقاليم الفرنسية . فلما قامت الحروب

---

(١) هنرى افنل : تاريخ الصحافة الفرنسية منذ عام ١٧٨٩ حتى اليوم (١٩٠٠) .

الدينية فى نهـاية القرن السادس عشر قضت على روح عدم الاهتمام المتبادل بين هذه الاقاليم .

وحينئذ نشأت الجريدة على وجـــه التحقيق وسرعان ما شـاع استخدامها وطبعها على أوراق منفصلة وبيعها باسعار رخيصة .

وكانت تضم الحوادث التى يمكن أن تهم القراء . .

وقدنشأت الجريدة فى وقت واحد تقريبافى فرنساوانجلترا وهولندا عند بداية القرن السابع عشر .

صحيفة جازيت ليتوفراست رينودو: كان تيوفراست رينودو أول صحفى فرنسى وما زال اسمه مألوفا لدينـا حتى الآن وقد ولد حوالى عام ١٥٨٥ فى لودن . ودرس الطب فى مونبيلييه وعاد لممارسته فى مسقط رأسه حيث تعرف بالأب جوزيف وبأسقف لوسون، ارمان دبلسى روشيليو . وسافر إلى باريس عام ١٦١٢ وصار بفضـل صلاته طبيبا للملك حيث حصل بعد فترة وجيزة على إذن وامتيـــاز بافتتاح « مكاتب للعنوانات » .

ولما أقام بصفـــة دائمة فى باريس فى سـنة ١٦٢٥ ، افتتح فى عام ١٦٣٠ مكتبا للاستعلامات والمقابلات فى قلب فندق جران كوك بشارع كلاندر المؤدى إلى السوق الجديد بالقرب من القصر ، وكان المـكتب بمثابة مركز للاستعلامات والاعلان (الاعلانات الصغيرة) حيث يلتقى المشترون والبائعون وحيث يعقـــد رجال الأخبار اجتماعهم . وبذلك

أصبح لدى رينودو معينا لا ينضب من القصص ، ففكر فى كتابتها ثم فكر فى عمل عدة نسخ منها لتوزيعها على مرضاه حين يعودهم ، ولما تزايد عليها الطلب فكر فى طبعها لبيعها للاصحاء أيضا .

وسار فى سبيل التقدم خطـــوة أثر أخرى إلى أن توصل فى ٣٠ مايو سنة ١٦٣١ إلى اخراج « لاجازيت » (والمعتقد أن هذه الكلمة مشتقة من كلمة أهل البندقية « غازيتا » وهى قطعة نقود صغيرة كانت تدفع أيام حربهم ضد الأتراك أجراً لسماع موجز أنباء الحرب) . وقد حصل على امتياز ملكى باصدار هذه النشرة كل أسبوع .

وقد كتب فى الافتتاحية الخاصة بتقديم المجلة إلى الملك يقول :

« مولاى ، هناك ملاحظة هامة تستأهل التاريخ ، هى أن فرنسا فى ظل ملوك كثيرة رغم ما هو معروف عنها من شغف بكل ما هو جديد لم تتنبه لنشر غازيته أو ثبت أسبوعى للأنباء المحلية والخارجية وقد حان الوقت للترفيه عن الناس بكتابات تجرى فى فترة وجيزة بين الشمال والجنوب وتنتقل منها إلى جميع أركان الأراضى وهذا هو ما أقوم به الآن يامولاى وأرجو أن اجرؤ على أن التمس منكم التكرم بتصفح هذه الورقات لعلكم تجدون فيها ما يستأهل القراءة » .

والواقع أن « لاجازيت » كانت جريدة شبه رسمية بالمعنى الصحيح وقد ضمت صفحاتها عددا كبيرا من المقالات كتبها وصححها لويس الثالث عشر بيده . وعالج أغلبها الشئون العسكرية أو اخبار القصر واليكم مثلا منها :

متز فى ١٥ فبراير ١٦٣٢ .

«بعد أن استعاد صاحب الجلالة فى مستهل هذا الشهر صحته بالعلاج والحمامات وفصد الدم وصار فى اتم النشاط عزز عافيته بالعمل وهو خامس المبادىء بالنسبة لجلالته فكان من بين ما قام به من مهام جسيمة الكثير من المخترعات الحربية الفنية الجليلة التى تقوم على أسس ميكانيكية» .

وتأتى بعد ذلك الأنباء السياسية مكتوبة لصالح الحكومة الملكية ثم نصوص القوانين والمراسيم والبيانات واخبار المجتمع من مواليد وزيجات ووفيات بين الشخصيات البارزة فى الدولة والحفلات والملاهى والزلازل والعواصف والحرائق والجرائم والقضايا ، والاتهامات والعقوبات الخ . .

وقد واصل عمل تيوفراست رينودو ولداه الطبيبان يعقوب واسحق ثم حفيده الأب رينودو . وفى سنة ١٧٦٢ أصبحت «لاجازيت» أكبر حجما وأخذت تظهر فى أوقات أكثر تقاربا وصار اسمها « جازيت دوفرانس » وكانت محلاة بالشعار الملكى .. وأصبحت فى صراحة الجريدة الرسمية بعد أن مرت بفترة كساد خطيرة .

الصحف الصغيرة :

وإلى جانب ذلك تكاثر فى سرعة عدد كبير من الصحف «الصغيرة»

ففى أثناء الحرب الأهلية [١] نشأت صحيفة « الوحى التاريخى » وهى مجلة ماجنة مكتوبة بأشعار رديئة (وجملة ما نشرته من أبيات الشعر بلغ ٤٠٠ر٠٠٠ بيت) .

وكانت هذه الصحيفة على رأس الصحف الباريسية . وكان يتسلى بها الملك والملكة والأمراء والأميرات وكان الناس يتفكهون بقراءتها فى باريس وفى الأقاليم بل وخارج الحدود الفرنسية أيضا .

وكان نجاحها كبيرا إلى حد دفع العديدين إلى تقليدها ومن أشهرهم سكارون [٢] .

وفى سنة ١٦٧٢ بدأ دونودى فيزيه [٣] فى نشر صحيفة « مركيز جالان » وفيها جمع طيب للأنباء السياسية والأوربية حيث كانت القصص الأدبية توجد إلى جانب أنباء الاستقبالات فى الأكاديمية (الفرنسية) والمرافعات إلى جانب الخطب الكنسية . والأغانى إلى جانب الأبحاث الأدبية فكان هذا الخليط يمثل تقدما حقيقيا فى عالم الصحافة أو على الأقل كان تجديدا فى هذا المجال .

---

(١) الحرب الأهلية التى وقعت فى فرنسا خلال حداثة لويس الرابع عشر وهى معروفة بحرب المقلاع La Fronde لانتشار هذه اللعبة بين أطفال باريس فى ذلك العهد .

(٢) بول سكارون (١٦١٠ــ ١٦٦٠) مؤلف أشعار هزلية ماجنة وقصص هزلية مهدت لأدب موليير .

(٣) دونودى فيزيه : أديب فرنسى ولد فى باريس (١٦٣٨ــ ١٧١٠) وقد نقد « مدرسة النساء لموليير » .

ومن الغريب أن تكون نهاية هذا العصر الكبير فترة ازدهار الصحافة الصغيرة وقد بلغ عـــدد الصحف فى عام ١٦٦٥ تسع عشرة صحيفة كانت كلها تعالج موضوعات خاصة وكانت أطولها عمرا جريدة «لوجورنال ديسافان» التى أسسها فى عام ١٦٦٥ دنيس دوســالو المستشار ببرلمان باريس وموضع تقدير كولبرت [١] . وكان دوســالو يقوم يوميا بنشر ما يجد فى عالم الأدب فى جريدته .

ولكنه سمح لنفسه بالتعقيب على هـذه الأنباء بابداء بعض الرأى فيها والنقد لها مما أثار ثائرة الكتاب ضـد ما كان يسميه ميناج [٢] ـ « التحريف الأسبوعى » . مما دعاهم إلى مناصبته العداء يعضدهم فى ذلك الآباء اليسوعيون الحاقدون على هذا النوع من السفسطة لاشتباههم فى أن تكون دعوة مستترة ضد عقيدتهم وفى صالح الجانسينزم [٣].

الجرائد الفرنسية التى تصدر خارج فرنسا :

اتخذ بعض الصحفيين الفرنسيين الحيطة لأنفسهم فى هذا العصر

---

(١) جين باتست كولبرت (١٦١٩ ـ ١٦٨٣) ولد فى ريمز ، وهو من وزراء فرنسا فى ذلك العهد . قدمه مازاران للملك لويس الرابع عشر فحاز ثقتـه ورضاه .

(٢) ميناج جيـل ١٦١٣ ـ ١٦٩٢ لغوى فرنسى ولد فى انجير واهتم خاصة بقواعد اللغة الفرنسية وآدابها .

(٣) جانسنيزم : نحـلة دينية نسبة للثيولوجى الهولندى جانسينيوس وكانت تفسيراته لمذهب سانت أوغسطينوس فى الغفران وحرية الارادة والقـدرية أساسا لنحلة جديدة سميت باسمه وحاربها الآباء اليسوعيون .

فهاجروا من فرنسا ونشروا فى الخارج جرائد باللغة الفرنسية . وباتت انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا موئلا لهم وكانت هولنده بصفة خاصة ملاذا للصحافة الحرة وأصبحت للمجلات التى كانت تنتشر فيها بالفرنسية أهمية دولية لأن هولنده كانت مركزا للمعارضة من الأحرار والبروتستانت الذين كانوا يناهضون المذهب الكاثوليكى وللملكى الممثل فى شخص لويس الرابع عشر .

وكانت الحكومة الفرنسية عاجزة عن منع هذه الصحف من دخول فرنسا .

وكان لويس الرابع عشر كما ذكر سان سيمون [1] معنى كل العناية أن تقرأ له جميع المجلات الهولندية .

ولما كان عدد كبير من الفرنسيين قد اختار الالتجاء إلى هولنده وفى مقدمتهم ديكارت [2] فقد ظهر فيها كثير من الصحف الأدبية وأصدر فيها بيل إبتداء من عام ١٦٨٤ صحيفة « أنباء دنيا الأدب » حيث كان يقدم نقدا للكتب . وحاز نجاحا كبيرا وعلى الرغم من أن

---

(١) سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) فيلسوف فرنسى ولد فى باريس وصاحب المذهب السياسى والاجتماعى المعروف باسمه والذى يتلخص فى أن « لكل حسب قدرته ولكل قدرة بقدر عملها » .

(٢) ديكارت (رينيه) ١٩٥٦ ـ ١٦٥٠ فيلسوف ورياضى فرنسى ولد فى لاهاى يطلق عليه لقب أبو الفلسفة الحديثة وهو صاحب المذهب المعروف باسمه ؛ ويتلخص فى ضرورة تخلص الانسان من جميع الأفكار السابقة لكى يتمكن من الوصول إلى الحقيقة ثم يقيم معلوماته من جديد . وهو صاحب التعبير المشهور « أنا أفكر فأنا إذن موجود » .

دخول هذه الصحيفة إلى فرنسا كان ممنوعا من حيث المبدأ . فقد كان من بين الذين حرصوا على قراءتها دوق دومونتوزييه والأمير كونديه دولامونيون رئيس البرلمان الفرنسي وجين دى لافونتين الروائى المشهور ومدام دولا سابليير ومالبرانش الفيلسوف المعروف .

بل لقد نصح بعض مستشارى الملك ومنهم فوبان بتعيين فئة من الصحفيين للتهكم على ما تكتبه هذه الصحيفة . وقد ألغى العمل بهذه الطريقة بعد قليل . غير أن عدداً من الأدباء الجادين وخاصة ايوستاش لونوبل الناقد الصحفى المشهور نصبوا من أنفسهم حماة للملكية .. ومن ثم نشأت حرب العصابات الصحفية ولم تكن على استعداد لأن تخبو .

وفى هولنده ظهرت أيضا صحيفة (المكتبة العالمية) لمحررها لوكليرك وصحيفة (تاريخ أعمال العلماء) لمحررها بوسناج وعدد كبير آخر من النشرات الفرنسية . وفى هذا يقول جورج فيل [1] لما تم للحكومات المطلقة السيطرة على الصحافة السياسية والتحكم فيها حاولت الصحافة الأدبية انقاذ بعض الحرية فى التعبير عن الرأى .

الصحافة الأجنبية :

وفى انجلترا وجد الصحفيون الأوائل أنفسهم يواجهون أصحاب الملك من بيت ستيورات الذين شنوا حربا عوانا ضد الصحفيين مدة

(١) جورج فيل الجريدة : أصلها ، تطورها ومهمة الصحافة الدورية

طويلة ولم يترددوا فى أن يستخدموا معهم اعنف وسائل التعذيب وأشدها وحشية .

ولكن السياسة الانجليزية أخذت تعمل شيئاً فشيئاً ضد هذه الأساليب الشاذة وأصدر شارل الأول فى عام ١٦٤١ أمره بالغاء هذه المحكمة البغيضة إلى النفوس .. وأصبحت الصحافة حرة خلال عامين تزايدت فيها الصحف بكثرة وتجاسر الصحفيون على نقد الملكية والكنيسة الأنجليكية التى كان يدافع عنها صحفيون آخرون، واجترأوا بصفة خاصة على نشر المناقشات البرلمانية دون ترخيص بذلك . وعندئذ تصدى لهم البرلمان وفرض الرقابة من جديد على الصحف فى عام ١٦٤٣ مما دعا ملتن [١] إلى توجيه خطابه المشهور فى هذا الشأن إلى البرلمان يدافع فيه عن حرية المطبوعات غير المرخصة واورد فى خطابه حججا استعان بها ميرابو [٢] فيما بعد .

---

(١) ملتن (١٦٠٨ ــ ١٦٧٤) شاعر انجليزى ولد فى لندره كان سكرتيرا لكرومويل فلما مات هذا الأخير هجر الوظائف وظل يعاني من الفقر والنسيان ما أفقده بصره فأملى على زوجته وبنته قبل وفاته قصيدته الخالدة بعنوان « الفردوس المفقود » .

(٢) ميرابو (١٧٤٩ ــ ١٧٩١) من أشهر خطباء الثورة الفرنسية سجن عدة سنوات إلى أن تمكن من الهرب إلى الخارج حيث قبض عليه فى هولنده واودع سجن فنسين من عام ١٧٧٧ إلى ١٧٨١ . وساهم ببلاغته وعلمه فى نجاح الجمعية التأسيسية الفرنسية ثم مات فى الوقت الذى اتهم فيه بعمالأته للقصر .

وفى أثناء الأعوام التسعة عشر التى مرت بين سقوط اسرة ستيورات وعودتها إلى الحكم ظهرت واختفت أكثر من مائتى جريدة

ولم يترتب على عودة أسرة ستيورات إلى الحكم فى عام ١٦٦٠ أى تحسن فى أحوال الصحافة الانجليزية بل كانت النتيجة على نقيض ما كان يتوقع الصحفيــون .

وكان لابد من انتظار ثورة ١٦٨٨ . والواقع أن عهد الملكة آن كان العصر الذهبى للأدب والصحافة . والغيت الرقابة الواقية فى عام ١٦٩٣ .

وفى ألمانيا عاونت حرب الثلاثين معاونة كبيرة فى نهضة الصحافة لأن المحاربين استخدموا الصحافة بكثرة وهى أسلحة معروفة بخطورتهــا البــالغة .

وفى ايطاليا ظهرت الصحف الأسبوعية فى فلورنسه وروما وجنوا فأسس أحد رجال الأعمال الماهرين ويدعى لوقا أسارينو فى جنوا عام ١٦٤٦ مجلة « Il sincero المخلص » التى دعمت علاقاته الطيبة بقصر منافوى وجمهورية لوكا باقليم توسكانا والحكومة الاسبانية فى ميلانو .

وسارت اسبانيــا فى نفس الطريق عام ١٦٦٠ فظهرت فيها غزيته مدريد (Gaceta de Madrid) ..

الفصل الثالث

الصحافة فى القرن الثامن عشر

كانت الصحافة فى مستهل القرن الثامن عشر ابعد ماتكون عن الحرية كما تدل على ذلك شواهد العصر نفسه إذ كانت تسوده الامتيازات وكان تأسيس جريدة امرا محاطا بالصعوبات التى لايمكن التغلب عليها.

ولذلك كانت الصحف السياسية قليلة العدد فى باريس، أما جريدة فردان التى كانت تطبع فى مدينة فردان فقد حازت استحسان لندن وفيينا فضلا عن فرساى ومدريد وكان اسمها الحقيقى مفتاح مجلس أمراء أوروبا أو ثبت تاريخى وسياسى لحوادث العصر .

وأسسها كلود جوردان فى عام ١٧٠٤ فكانت بداية للصحف ذات الطابع التاريخى ..

واستمرت لاجازيت دى فرانس فى الظهور ولكن فى تواضع ودون نشاط ملحوظ. وأما جورنال ديسافان فقد جعل منها دوبونتشارتران لسانا للدولة وعين لضمان حسن تحريرها مجموعة من الأدباء المتخصصين فى شتى فروع الأدب بعد أن تبين أن المهمة كانت أشق من أن يضطلع بها شخص واحد . فكانت هذه خطوة تستحق التسجيل والتنويه .

وكما كان الشأن فى كل العصور عندما يصيب الحرية نوع من التضيق كانت الصحافة الأدبية تزدهر ويكثر عددها على حد تعبير بيل . ويقول فولتير أنه كانت تظهر فى أوروبا ١٧٣ جريدة أدبية فى الشهر . والحق أننا لو جارينا الفلاسفة فيما يقولون عن الصحافة والصحف لاحتقرناها إذ يقول عنها ديدرو أن هذه الأوراق زاد الجاهلين ومادة الذين يرغبون فى الكلام وفى الحكم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء القراءة وهى وباء ومصدر اشمئزاز للذين يعملون .

ولم يكن روسو أقل قسوة من زميله فى حكمه على الصحافة إذ كتب إلى أحد أصدقائه فى جنيف يقول :

« ماهى الدوريات ؟ عمل زائل لا رواء فيه ولا نفع منه ، يعزف عن قراءتها أهل الأدب ويترفعون عنها ولا تصلح إلا فى تشجيع النساء والحمقى على ادعاء العلم والغرور دون ثقافة ومصيرها المحتوم بعد أن تكون قد تلألأت فى الصباح هو أن توضع على طاولات الزينة وأن تموت فى الليل بعد أن توضع فى الصوانات » .

وقال عنها فولتير :

« إن الدوريات معرض عام للمناقب والمثالب كما أكد أن الأدب بها قد تردى فى مهاوى سحيقة » .

هذا ولم يمتنع الصحفيون من جانبهم عن شن الحرب على الفلاسفة

وعلى رجال الموسوعة وعلى الأكاديمية وخاصة فى النصـــف الثانى من هذا القرن .

فعندما أخرج الآب ديفونتـــين عام ١٧٢٠ مجلة « صحفى من بارناس » أو « تأملات فى الجديد من المؤلفات » شن عليه الحرب منذ عام ١٧٣٢ الأدباء والناشرون . وفيما بين عـام ١٧٣٥ و ١٧٤٣ عرض فى «ملاحظات على الكتابات الحديثة » برجال الموسوعة وبفولتير وبالاكاديمية ، ثم سحب منه بعد ذلك امتياز نشرها وأن كان قد حصل على إذن ضمنى بالاستمرار فى الـكتابة باسم مستعار وبعنوان جديد .

وقد أودع ديفونتين ، على الرغم مما كان لـكتاباته من قيمة السجن فى أكـثر من مناسبة مما لم يعف فولتير من الشعور فى كثير من الأحيان بأنه غير مسلح لمواجهة الصحفيين .

وذلك لأنه لم يكن خصمه الوحيد بل كان هناك أيضا فريرون على وجه الخصوص الذى ظل يخرج منذ عام ١٧٥٤ إلى أن وافته المنيـة « الحولية الأدبية » فقد كتب عنه فولتير يقول : ولماذا يسمح لهذا الخبيث المسمى فريرون بأن يلى ديفونتين هـــل ضاق به مستشفى المجاذيب ! » .

وقد كثر عدد الصحف الأدبية فى القرن الثامن عشر كـثرة هائلة بحيث لم يكن هناك كاتب فرنسى واحد من رجال العصر لم يشارك فى تحرير إحدى الصحف أما الذين لم يشاركوا فيها فقد خشوا قسوة أحكامها .

وظهرت فى عام ١٧٧٧ أول جريدة يومية تحت اسم « جريدة باريس » وكانت تحوى أنباء أدبية أو مسرحية ونقدا فنيا وأخبار قضائية وحوادث مختلفة وأسعار السوق المالية ونشرات صحية . وقد أوقفت فى عدة مناسبات ولكنها تمكنت من الصمود إلى أن قامت الثورة نظرا لأنها كانت تتجنب الخوض فى السياسية .

ولم يأنف رجال الدين أنفسهم فى هذا العصر من النزول إلى ميدان الصحافة .

ففى عام ١٧٠١ عهد لويس اوجست دوبور بون أمير دومب للآباء اليسوعيين بتحرير وادارة صحيفة تريفو للدفاع عن الدين ضد ما كانوا يسمونه (بالصحف الملحدة) وقد هاجاها كل من فولتير وجان جاك روسو بابيات لاذعة من الشعر .

ونظرا لعدم وجود صحف فرنسية أخرى غير الصحيفة الرسمية ومجلة (جازيت دوفرانس) التى كانت بطبيعتها غير كافية لاشباع مافى النفوس كانت تباع فى باريس والأقاليم صحيفة أجنبية أو فرنسية مستترة فكان لجريدة جفيفت التى كان يصدرها بانكوك ولجريدة بروكسل التى كان يصدرها لنجيه (تطبع فى باريس) عدة منازعات مع مختلف السلطات من القضاء والحكومة والاكاديمية مما اضطر لنجيه إلى الهرب إلى بروكسل ثم إلى لندن حيث أسس صحيفة الحوليات السياسية والادبية التى هاجم فيها الجميع دون استثناء ولكن على الرغم من ولع الاسرة

المالكه بقراءتها فقد انتهى أمره بالوقوع فى شرك نصبته له الحكومة فى باريس . وزج به فى سجن الباستيل عامين عاد بعدهما إلى بروكسل ثم سافر إلى لندن حيث كشف عن فظائع الباستيل .

وتولى ماليه دى بان أثناء سجن لنجيه تحرير الحوليات حيث برهن كما فعل بعد ذلك فى جريدة جنيف — على سعة فى الافق واستقلال فى الرأى واصالة فى التفكير وحب للحرية مما دعا ايوجين هاتن مؤرخ الصحافة أن يقول عنه أنه أول صحفى صادفناه حتى الآن .

الصحافة خارج فرنسا

كانت هولندا بصفة خاصة فى هذا القرن كما كانت فى القرن الذى سبقه هى الدولة التى كثر فيها ظهور الصحف بالفرنسية فى حرية أكثر من أى مكان آخر ، وبلغة غاية فى الجرأة وعداء سافر لفرنسا . وقد كشف محرر نوفيلليست سان فار التى كانت تصدر فى كولونيا فى عام ١٧٢٣ عن سر هذه الضغينه وسبب هذا الحقد فقال :

« ينبغى أن نقرر أننا نعيش فى عصر لانظير له . فالكل يتحدث عن الحقيقة ويتشدقون بجمالها وحلاوتها وبجدارتها وحدها للرضاء ولكن ما السبيل إلى معرفتها ؟ . لابد من امتيازات خاصة لاعلانها امتيازات لابد من الحصول عليها فى فرنسا وفى ايطاليا ولكنها لاتمنح

فى الوقت الحالى فى باريس وروما إلا بقدر ما يمنح إذن بالمرور إلى الحريم فى القسطنطينية . وذكر الحقيقة دون الحصول على امتياز خاص بذلك معناه المجـازفة بالحرمان من الحرية الشخصية فمحاكم التفتيش فى روما وسجن الباستيل فى باريس مكانان لايدخلهما الانسان راغبا .

وظهرت فى لنـدن فى عام ١٧٧٦ مجلة انجليزية فرنسية ، سرعان ماصادفت نجاحا سريعا قويا . وقصتهـا أن فرنسيا يدعى سردولاتور أحب زوجة حاكم منطقة (افرن) واضطر للهرب إلى انجلتره . وإذا كان حقا مايقال من أن الصحافة تؤدى إلى كل شىء فانه حق أيضا أن كل شىء يؤدى إلى الصحافة إذ خطرت للرجل فـكرة إخراج مجـلة فرنسية فى لندن وتوزيعها فى فرنسا فأصـــدر صحيفة بريد أوروبا وتطوع أحد رجال الصناعة ويدعى سونتون بامداده بالمـال . وكانت خطة المجـلة اقتباس مقتطفات صادقة لمـا ينشر فى ثلاث وخمسين مجلة أسبوعية تظهر فى لندن والحق أن حكومة فرنسا كانت فى حاجة لمعرفة انجلترة معرفة عميقة ، فرضيت السلطات عن عمد دخولها فرنسا ولكن الوزارة البريطانية رأت فى المجلة ضربا من الجاسوسية العامة فحظرت تصديرها إلى القـارة .

وفكر سوينتون فى طبع المجلة التى تصـدر فى لندن فى بولونيا على الشاطىء الفرنسى واختار لتحريرها بريسو الذى لعب دورا كبيرا فى الثورة الفرنسية . وقد كتب فى ذلك يقول :

« كان على أن اتدبر طويلا لأوازن بين مركزى الاجتماعى ومهنتى الصحفية التى لم يكن ينظر اليها فى ذلك الحين بعين التقدير وقلت فى نفسى كان بيل معلم صبية وكان بوستل ساعيا فى إحدى الكليات وكان روسو تابعا لمركيزة . فلأجمل المهنة إذن تشرف بى ولأدعها تنال من شرفى . »

وحينما اشتد ساعد المجلة تلقى القائمون على أمرها عونا من الوزارة الفرنسية حتى لايكتبون إلا فى صالحها فى حين انهم كانوا يتلقون باليد الأخرى العون والمال من الوزارة الانجليزية . ويقول بريسو أن مجلة بريد أوروبا ربما تكون الأثر الوحيد الذى ينبغى أن يرجع اليه من يرغب فى معرفة تاريخ الثورة الأمريكية والواقع أن المؤرخين كذلك سوف يجدون فيها كثيرا مما يستحق التسجيل .

وكانت الصحف الأجنبية تلقى دون عناء رواجا فى فرنسا . وبات الناس منذ القرن السابق يقرأونها فى مشارب باريس وحاناتها وفى شوارعها وازقتها . وسرعان ما تغيرت الأمور من حسن إلى أحسن فى القرن الثامن عشر . فجاء فى المذكرات السرية (١٧٦٢) الكلمات التالية :

« افتتح المدعو جرانجيه الكتبى مايسميه (بالقاعة الادبية) حيث يتمكن كل من يدفع ثلاثة دراهم للجلسة من الاستمرار ساعات طويلة متصلة فى قراءة كل ماهو جديد من الأنباء » .

وفى أغسطس من عام ١٧٧٩ افتتح السيد مورو الكتبى «المكتب الاكاديمى للمطالعة» حيث كان يقدم لرواده الصحف والمجلات والمؤلفات الدورية الفرنسية أو الاجنبية . كل ذلك فى قاعات مزينة فى عناية ومدفئة فى الشتاء ومضاءة على الدوام بالشموع .

وكان يقوم على خدمة الرواد (خدم للادب غاية فى الذكاء) على أن يدفع الزائر ستة دراهم للجلسة .

ومما يجدر بالذكر ان الصحف السرية كانت كثيرة التداول وكانت حافلة باخبار الكنيسة ورجال الدين .

وظلت المجلات المخطوطة قائمة طيلة القرن الثامن عشر . فقد استخدم كابودى رامو خمسين ناسخا ليزودوا مائتين وثمانين مشتركا بالنشرات .

وفى انجلترة خلال القرن الثامن عشر استفادت الصحف أن صح هذا التعبير من النزاع بين حزبى الأحرار والمحافظين .

وليس هناك شك فى اننا ندين لتلك البلاد - نظرا للظروف المواتية التى مرت بها - بما حصلنا عليه فى ميدان الصحافة فى ذلك القرن من تجديدات بالغة الأهمية وظهرت فيها أول صحيفة يومية أوربية فى سنة ١٧٠٢ . وهى صحيفة « ديلى كرانت » .

وكانت جميع طبقات المجتمع فى لندن تهتم بالصحف . وقد دهش

مونتسيكو[١] حينما لاحظ أن أحد عمال المبانى قد أرسل وهو فى حمية العمل لاحضار إحدى المجلات .

وكانت الصحافة الانجليزية سباقة إلى الاستعانة بما يدفعه التجار من مال ثمنا للاعلانات والمعروف أن الأب دى مونتانى[٢] كان قد اقترح فى كتاباته قبل ذلك فكرة انشاء مكان للمبادلات بين العروض والطلبات وسبق أن ذكرنا أن تيوفراست رينودو كان أول من مارسها بالفعل ونضيف الآن أنه قد قام فى انجلتره عام ١٦١١ أول احتكار لادارة مكاتب الاستعلامات .

وفى عام ١٧٤٦ أسس فيلدنج ــ جريدة «كوفنت جاردن جورنال» جعل فيها بابا جديدا خاصا بمناقشة مايجرى فى جلسات المحاكم التأديبية

---

(١) مونتسيكو (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥) فيلسوف فرنسى مؤلف رسائل فارسية ونظرات فى أسباب عظمة الرومان وانحلالهم وكتاب « روح القوانين » ويرجع الفضل فى شهرة المؤلف إلى هذا الكتاب الأخير . وفيه تحدث عن ضرورة فصل السلطات .

(٢) مونتاني (١٥٣٣ ــ ١٥٩٢) مؤلف المقالات المشهورة باسمه . وقد اكتشف عن طريق التناقض القائم فى الطبيعه البشرية عجز الانسان عن اكتشاف الحقيقة والعدل وكان يعتقد ان كل شىء نسبى . ولكنه لم يخلص من ذلك إلى التشاؤم بل انتهى إلى أن (فن الحياة) ينبغى أن يشيد على حكمة رزينة تقودها الفطنة والتسامح .

ومازالت صحف لندن حتى يومنا هذا تحوى عرضا للقضايا اليومية يزيد على ماتحتويه « غازيتة المحاكم » الفرنسية . ثم ظهرت بعد ذلك بخمسة عشر عاما أولى المقالات التى تناولت شئون المسرح وكانت تضم إعلانات بسيطة عن المسرحيات وتحليل لها . وأما النقد بمعناه الصحيح فلم يظهر إلا فى عام ١٧٨٠ .

وبدأ وصف جلسات مجلس النواب يظهر فى الصحف خلال عام ١٧٢٨ — ١٧٢٩ دون الحصول على تخويل قانونى بذلك ومازال الحال كذلك حتى وقتنا هذا .

وبين عام ١٧٦٧ و ١٧٧١ ظهرت فى صحيفة (ببلك ادفرتيزر) رسائل جنيوس المشهورة وهى سلسلة من الموضوعات السياسية التى كان لها دوى كبير .

ويمكن عرض موجز لتطور الصحافة الانجليزية فى القرن الثامن عشر على هذا النحو : (١)

« كان الهدف الوحيد للصحف فى مستهل ظهورها جمع الأنباء ونشرها على الجمهور ، وكانت الرقابة الغيورة التى تأخذ بخناقها لاتسمح لها بإضافة أية تعليقات عند رواية الحوادث وبذلك أصبحت مهمتها مجرد قصة شاهد عيان يرويها إرضاء للفضول البشرى . ثم انقلبت الآية فيما بعد إذ عملت السياسة التى طالما حاربت ظهور الصحف على الاكثار منها ، ورأت الأحزاب السياسية فى الصحف معينا لاغنى عنه وتكبدته

كبار الشخصيات الكثير من التضحيات حتى تجعل فى خدمتها اداة عرفوا خطورتها وسخروها للدفاع عن مذاهبهم ومهاجمة منافسيهم» .

وقد ابتدع جيمى برى محرر (الكرونيكل) فكرة إعطاء الوصف الكامل لجلسات مجلس العموم مستعينا بفريق من المختزلين، كما ابتدع دانيل ستيورات محرر مورننج بوست فكرة ابراز أهم حوادث اليوم تحت عناوين ضخمة مكتوبة بحروف كبيرة

وأما والتر الثانى فقد أسس جريدة التيمز فى سنة ١٧٨٥ ولكن الادارة دأبت على مناوأته لأنه هاجم الحكومة مما اضطره إلى استخدام سفنه الخاصة وعرباته الخاصة فى نقل البريد ورسله الخاصين . وكان أول من استخدم البخار فى خدمة المطبعة .

وتعتبر الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التى لم تضطهد فيها الصحافة وهى وأن كانت أكثر الأمم حداثة عهد إلا أنه توجد فيها أقدم الصحف .

وكان توماس جرين مؤلف بعض الكتابات الدينية وبعض الكتب الكلاسيكية أول من أدخل المطبعة فى أمريكا . وقام ابنه الأكبر بارتلمى بطبع أول جريدة فى بوسطن وكان جون كامبل وهو من أصل اسكتلندى قد فكر فى تأسيسها كمورد من موارد الربح . وهكذا نشأت فى عام ١٧٠٣ جريدة بوسطن نيوزلتر .

وفى عام ١٧١١ كان أحد أبناء المهاجرين من دوقية اكسفورد قد

سافر إلى انجلترة ليتعلم حرفة الطباعة ثم عاد ليستقر فى بوسطن ومعه أجهزة كاملة المعدات . وهو جيمس فرانكلين . وتتلمذ على يديه أخوه بنيامين وأخرج فى ١٧ يوليو ١٧٢١ (كوريبه دولا نوفل انجلنيز) وأصبح بنيامين من أحذ محرريها الرئيسيين فكان يكتب مقالات جيدة فى النقد ، هى أقرب إلى الأخلاق منها إلى الأدب الخالص ، ومارس ملكته فى التهكم ضد الحكومة ورجال الدين المتعصبين ولكن دون ذكر أشخاص . وكان ينظر إلى آل فرانكلين على أنهم كفار كما كان البعض يصف جريدتهم بأنها (ورقة ملعونة) (وجريدة التهلكة) — وكان العدد الصادر فى ١١ يونيه سنة ١٧٢٢ قد هاجم فى تهكم بطء الاجراءات الادارية مما أدى إلى الحكم على جيمس فرانكلين بالحبس شهرا بحجة نشره ملاحظات جريئة على حكومة جلالة الملك ورجال الدين والكنيسة والجامعة .. وتولى أخوه بنيامين فرانكلين إدارة الجريدة أثناء سجنه .

وفى ٢٧ مارس سنة ١٧٢٧ ظهرت جريدة (نيوانجلنيد) وكانت منذ نشأتها لسانا للحركة الدينية المنهجية الكبيرة المعروفة بالبريتانيزم[1] مما ساعد على احياء الحركة وتجدد نشاطها .

وفى عام ١٧٢٩ نشر بنيامين فرانكلين الذى كان قد غادر بوسطن

---

(١) البريتانيزم مذهب يأخذ بحرفية النصوص واتباعه مشهورون بالتزمت

إلى فيلادلفيـا (غازيته بنسلفانيا) ـ وكانت عاملا قويا من عوامل التقدم تضع نفسها دائما فى خدمة التحسينات العملية والتجديدات النافعة وعلى صفحاتها اقترح إنشاء شركات المضخات وإيجـــاد العسس الدائم بالمدينة وتعزيز الدفاع على حدود الدولة. وكان يفتخر بما حققته جريدته من إصلاحات بلدية أكثر مما كان يفتخر باكتشافاته العملية . وفى عام ١٧٤٠ كانت توجد فى أمريكا أربع عشر جريدة .

وكان للصحافة تأثير ضخم على أعظم أحداث القرن الثـامن عشر ونعنى به حرب الاستقلال .

« لم يشرع سيف جورج واشنطن إلا للدفاع عن ثورة كانت قـد نمت فى الأفكار . أما مهمة تكوين هذه الأفـكار وتحطيم الروابط واحدة أثر أخرى وتبصـــير الشعب بحقوقه وإيقاظ وعيه بمستقبل مستقل عن انجلتره وخلق روح وطنية أمريكية فـكانت كلها من عمل الصحافة [١] » .

وضمت الصحافة الأمريكية إلى صفوفها منذ ذلك الحين كل الرجال البارزين مثل فرانكلين وجون وصمويل آدامز وجفرسن . وجاى ، وهاملتن . وقد وضعوا جميعا الأقلام غداة النصر ليصبحوا أعضـاء فى

---

(١) كوشفال ـ كليرني ـ الـكتاب السابق الذكر

الكونجرس وسفراء أو وزراء تاركين وراءهم فراغاً لم يشغل من بعدهم .

ولئن كانت الصحافة السياسية الفرنسية فى القرن الثامن عشر متأخرة عن زميلتها الصادرة فى انجلتره فانها كانت متقدمة عن زميلاتها فى البلاد المجاورة الأخرى حيث كانت لرقابة أشد عنفا .

ولم يكن اباطرة الامبراطورية المقدسة فى ألمانيا يرغبون فى أن يكون رعاياهم من أصحاب الرأى . ولما تحولت بروسيا إلى ملكية راقب ملكها العسكرى (فردريك غليوم الأول) عن قرب ما للصحافة من سلطان يدعو إلى القلق فأنشأ فى عام ١٧٢٨ نشرات للاعلام خصها بأخبار التربية والتعليم وبالأخبار الأدبية والعلمية نظرا لعدم ثقته السياسة .

ولم يسع فردريك الثانى وكان محباً للآداب إلا الغاء الراقبة وكان قد اتخذ هذا القرار بمجرد توليه الحكم ولكن الصحافة فقدت حريتها من جديد بعد ذلك بثلاثة أعوام . وبعد ذلك بعدة سنوات وبين عامى ١٧٥٠و١٧٧٤ أخذت الرقابة تتزايد شدة على الأيام .

وعلى الرغم من صرامة هذا الملك الفيلسوف المحارب مع الصحفيين فانه كان يقدر رسالتهم تقديرا كبيرا ولم يترفع عن أن يكتب بنفسه فى صحيفة برلينية (رسائل شاهد عيان) أيام حربى سيليزيا وقصصا حربية خلال حرب السبع سنوات . والواقع أن منشأ صرامته مع

الصحفيين يرجع من غير شك الى حكمه عليهم من خلال ذاته ويقينه بأنهم جميعا قادرون على القيام بما يتهمه به المؤرخ فيل (١) ـ أعنى نشر وثائق مكذوبة يقوم هو بتزويرها . ولما كان المثـل السيء لايعدم من يحتذيه ، فقد سارت الامبراطورة مارى تريز (ملـكة النمسا) — على نهجه .

وقد رغب جوزيف الثانى فى القيام بلفتة طيبة كالمعتاد فألغى الرقابة وسرعان ما تولته الدهشة كما حدث لسابقيه حين لاحظ أن منح الحرية يدفعهم إلى اساءة استخدامها ولم يكن حريصا على قبول نقـــد بعض أخطائه السياسية فعـاد إلى الأسلوب القديم بفرض ضرائب باهظة على المطبوعات .

وحافظ من اتوا بعـده على هذا النهـج إلى أن جاء عام ١٧٨٨ فشدد فردريك غليوم الثانى النـكير على الصحافة ..

وادت نفس الأسباب فى باقى دول القارة الأوروبية إلى نفس النتائج فحدث فى ايطاليا كما حدث فى فرنسا ان زاد ازدهار الصحافة الأدبية وأصبحت أكثر امتاعا من الصحـافة السيـاسية التى خضعت دائما للسلطة وتدخلها ..

---

(١) الـكتاب السابق الذكر (المؤلف)

الفصل الرابع

الصحافة بين عامى ١٧٨٩ - ١٨٤٨

الصحافة خارج فرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر التطورات الإقتصادية

الصحافة أيام الثورة الفرنسية :

حينما تضطرم أفكار الناس وتدق القلوب بشدة وتهتز كل الشفاه فتعبر عن العواطف الثائرة بكلمات من نار وحينما يحس الذين يتدافعون فى سبيل الحياة أن يومهم قد قضى على أمسهم وأنه لابد قاض على غيرهم عندئذ ينقضى بالنسبة اليهم عهد الكتب ويبدأ عهد الصحف .. بهذه الكلمات عبر لويس لو بلان عما يجيش فى خاطره وهو يكتب تاريخ الصحافة الفرنسية .

ومن الطبيعى حينما يبدأ عهد جديد أن تستحدث كلمات جديدة أيضا .. وهذا ماحدث فقد ورد فى خطاب بتاريخ سبتمبر سنة ١٧٨٩ وجهه بعضهم لصحيفة «لا كرونيك دو بارى» ما يلى :

لما كان رأيك قد استقر على اتخاذ الصحافة مهنة لك (أرجو أن

تسمح لي باستخدام هذه الكلمة التي تفتقر اليها لغتنا) فانه لن يضيرك أن أسوق لك مثلا عن مدى دقة المهمة التي ستضطلع بها .

وكتب أوجين هاتان يقول أننا سنجد في الصحف تاريخ الثورة، ذلك التاريخ الحقيقي الصادق وقد سجلته يوما بعد يوم أقلام المعاصرين، كما علقت عليه أيضا أقلام غيرهم من المعاصرين كذلك .

ويمكن تقسيم ذلك التاريخ إلى ثلاث مراحل :

١) من عام ١٧٨٩ إلى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ حيث نتج عن عزل وزراء الجيروند ثورة باريس التي انتهت كما هو معروف بسقوط الملكية وكانت حرية الصحافة بين هذين التاريخين مطلقة إلى أقصى حد .

٢) من ١٠ أغسطس إلى ٩ ترميدور ١٧٩٤ وهو تاريخ سقوط روبسبير وبعد أن خرجت الجرائد الملكية والدستورية من المعركة أخذت الصحافة تهتم بنشر خطوات النزاع بين الجيرونديين واليعاقبة (١)

---

(١) الجيروندويون يؤلفون حزبا سياسيا مشهورا في فترة الثورة الفرنسية ويسمون بهذا الاسم نسبة لمنطقة جيروند بجنوب غرب فرنسا ويعرفون بعدائهم الملكية .. تولوا السلطة عام ١٧٩٢ ولكنهم ثاروا على مذابح سبتمبر المشهورة التي تلت سقوط لويس السادس عشر .. (واليعاقبة جماعة من الثوريين كانوا =

٣) من ٩ ترميدور [١] إلى حكومة القنصلية . . وقد بدأت هذه الفترة برد فعل عنيف ضد اليعاقبة ساهمت الصحافة فيه بقسط وافر إلى أن أسقط في يد حكومة الديركتوار [٢] وعبثا حاولت الحصول من الجمعية العمومية على تشريعات تدافع بها عن نفسها ، وكانت النتيجة أن أطلق الصحفيون لأنفسهم العنان حتى حلت بهم الكارثة الكبرى في ١٨ فريكتيدور ١٧٩٧ .

وفي مستهل الثورة ترك الحبل على الغارب فظهرت بين شهر مايو ١٧٨٩ ومايو ١٧٩٣ الف جريدة على الأقل .. وكان القراء المتشوقون يلتهمونها وكانت تقرأ بصوت عال في الحدائق والميادين العامة وفي المقاهي وكان الباعة ينادون عليها في الشوارع وتلصق على الجدران في العاصمة وغيرها من مدن الأقاليم البعيدة .

= يعقدون اجتماعاتهم منذ أكتوبر ١٧٨٩ في دير اليعاقبة الموجود بشارع سانت هونوريه بباريس .. ويعرفون بتطرفهم الشديد وكان روبسبيير ينتمي اليهم . وقد أغلق ناديهم عام ١٧٩٤ بعد يوم ٩ ترميدور

(١) ترميدور وفريكتدور شهران من أشهر السنة الجمهورية الفرنسية ويوافق تاريخ ٩ ترميدور ١٧٩٤ حين سقط روبسبير وقضى على عهد الارهاب يوم ٢٧ يوليو ١٧٩٤ .

(٢) ديركتوار اسم الهيئة التي تولت الحكم في فرنسا منذ ٢٧ أكتوبر ١٧٩٥ والتي اسقطها نابليون بونابرت في ٩ نوفمبر ١٧٩٩ . . وهي الحكومة التي قامت في عهدها الحملة الفرنسية على مصر .

وكان من عوامل نجاحها ما اتخــذته لنفسها من عناوين وأسماء غريبـــة .

فرأينا صحيفة الأصدقاء و صحيفة العابدين و صحيفـة اليعاقبـة وصحيفة رجال ١٤ يوليو وصحيفة الشيطان وصحيفـة الغث والثمـين وصحيفة الخاملين (وكانت من النوع المقـل فى الـكلمات) وصحيفـة «بشير الشعب» و انجيل اليوم (التى كانت ضد الـكاثوليكية والملكية) و«صديق الشعب» ويحررها مارا و«الصديق الحقيقى للشعب» «والأب دوشين» ويحررها هيبير .

وكان باعة الصحف ينطلقون فى الشوارع منـذ الصباح البـاكر ينادون عليهـا بأعلى صوتهم . . وقـــد حاول البوليس كما حـــاول مجلس باريس عدة مرات إيقاف هذا التيـار الجـارف من الصحف بفرض نوع من التنظيم لها . . ولكن باعة الصحف احتجوا لدى بايى عمدة باريس فى ذلك الوقت فى لهجة شديدة بقـولهم :

لقد دفعتمونا دفعا إلى الاختيار الرهيب بين أمـرين .. فأما أن نهلك من الفقر وأما أن نسرق لنعيش .. وقال مارا :

انها انجع وسائل العدوان على حرية الصحافة .

وما وافت السنة الخامسة للثورة حتى صدر قانون يحـرم على باعة الصحف الاعلان عنها بغير عناوينها .

وقد عاون كل رجال العصر من الـكتاب والساسة بأقلامهم فى

الصحافة .. وكان ميرابو هو الذى أفسح الطريق لغـيره من الـكتاب أمثال مارا وبريستو ولوستالوا وكوندرسيه ولوفيـه وشينيـه وكامى دءولان وفريرون وهيبر وروبسبيير وبابوف وغيرهم .. فقد كانوا فى حاجة إلى التعبـير عن آرائهم وآمالهم وخططهم وحقدهم وحماسهم .. حتى لقد ساهم فولتير نفسه منذ البداية فى تحرير « انجيل اليوم»...

وكانت أوائل أيام الحرية أفضلها أيضا بالنسبة للصحافة حيث أظهر الصحفيون حماسة صادقة وأمانى نبيلة .. وبدت الرقابه التى لم تكن قد الغيت بعد بصفة رسمية ، عاجزة عن الحراك حتى اختفت من تلقـاء نفسها غداة سقوط الباستيل واضحى الناس يعرفون المادة الثانيـة من اعلان حقوق الانسان التى تنص على أن :

(حرية نشر الأفـكار والآراء من أثمن حقوق الانسان ومن حق كل مواطن أن يتكلم وأن يكتب وأن يعلن رأيه فى حرية) .

وبلغ الصراع مداة بين صحافة الثورة التى شنت هجومها فى عنف والمدافعين عن الملكية الذين أخذتهم الدهشة فاضحوا متقاعسين وجلين حتى أن صحيفة (لاجازيت) وهى لسان البلاط لم تعلق بكلمة واحدة على نبأ سقوط الباستيل .

وكانت صحـافة الطرفين قد قصرت كل اهتمامها تقريبـا على نشر الأبحاث ومقالات الهجاء دون عرض الحوادث وإن كانت قد عنيت مع ذلك كل على طريقتها بالمناقشات التى كانت تجرى فى الجمعية العمومية .

وقد لجأ الصحفيون المشايعون للملكية إلى الاستهزاء والسخرية والتضليل .

ولم تكن صحافة الثورة تحرر بصفة عامة بلغة مختارة إذا استثنينا مقالات كامى ديمولان . وكان مارا عنيفا فى نقد هذا الاتجاه فى الصحافة إذ يقول :

« أضحت مهنة الصحفى أمرا يدعو للسخرية بيننا فى هذه الأيام . فكل من لاك أبياتا ركيكة أو سود مقالا غثا فى (لاجازيت) ثم حار فى اختيار عمل يمتهنه . جرب حظه فى إنشاء إحدى الصحف وغالبا ما يكون شخصا فارغ العقل تافه المعلومات لا فكر عنده ولا رأى وكل همه أن يتجه إلى المشارب ليجمع ما يتردد فيها من شائعات ومزاعم أعداء الأمة وشكاوى المواطنين ومتاعب غير المحظوظين ويعود ورأسه محشو بكل هذا السقط فيسود به صفحات يدفعها إلى المطبعة لتهديها فى اليوم التالى للبلهاء من مغفلة المشترين . تلك هى حقيقة غالبية هؤلاء السادة » .

وكانت الصحف تقوم بتوجيه الرأى العام الفرنسى طوال مدة وجود الجمعية التأسيسية الفرنسية . ولما قامت الجمعية التشريعية قويت النوادى (الأحزاب) ولم تنج الصحافة تماما من الخضوع لسيطرتها وإن كانت قد احتفظت بجزء من استقلالها حتى جاء يوم ١٠ أغسطس .

ولما قامت ثورة ١٠ أغسطس أخرجت الصحف الملكية والدستورية

من المعمدة . وكان المجلس العام قد قرر بناء على اقتراح أحد أعضائه القبض على محررى الصحف المناهضة للثورة وتوزيع صحفهم ومطابعهم على أصحاب المطابع (الوطنيين) وحكم على كثير من الكتاب بالاعدام ونخص بالذكر منهم دوروزوى محـــرر (لاجازيت دوبارى) ثم قام الصراع بين الجيرونديين [1] (المعتدلين) ورجال حزب الجبل (المتطرفين) وأخذت الصحف تردد صدى هذا الصراع .

ثم سقط الجيرونديون ولم يبق أمام الجبليين من المعادين إلا جريدة (لوفيريتابل امى دوبيل) وكان محررها مارانديه وجريدة (لوفييه كورديلييه لمحررها كامى ديءولان وقد قدم الاثنان رأسيهما ثمنا لمعارضتهما .

والواقع أن مهنة الصحافة تعرضت خلال مرحلة الثورة لأخطار تتناسب والأهمية الرئيسية للدور الذى كانت تلعبه فى الحيـاة السياسية اللائمة فقضى كثير من الصحفيـين نحبهم على المقصلة مثل بريســـو وجورساس وكارا، وجيرى دوبريه، ولانجيه، وأندريه شنييه وانا كارسيس كلوت ورابو سانت اتيين وآخرون .

وقـد حاول مجلس الثورة [2] فى عدة مناسبات الحد من غلواء

---

(١) راجع هامش صفحة ٤٠

(٢) مجلس الثورة هو الذى خلف الجمعية التشريعية فى حكم فرنسا يوم ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ وظل حتى يوم ٢٦ اكتوبر ١٧٩٥ وقد أعلن المجلس الحكم الجمهورى وقضى على لويس السادس عشر وكان يتـألف فى الأصل من ثلاثة احزاب هى : حزب الجيرونديين وحزب الجبليين وحزب لابلين .

بعض الصحفيين مثل مارا وهيبير ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح . فاضطر إلى الكف عن محاولاته .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل هوجم مجلس الثورة فى عقر داره إذ كانت بعض المقاصير تحجز للصحفيين فى قاعة الاجتماعات مما جعل بعض النواب يبدون مخاوفهم من حضور الصحفيين ويعتبرونه رقابة مفروضة ولم يتوجس دوهيم أحد أعضاء المجلس خيفة أن يعلن من على المنبر يوم ٨ مارس ١٧٩٣ قوله :

« ينبغى اسكات هذه الحشرات المثيرة للاضغان وإنى أطالب المجلس بتطهير داره من هذه الكائنات الدنسة (أصوات كثيرة تتردد بالموافقة .. نعم .. نعم) إنى أطالب باخراج جميع الصحفيين من هذه القاعة . »

بل لقد فكر البعض فى حرمان الصحفيين الذين هم فى الوقت نفسه أعضاء فى الجمعية من حضور جلساتها ولكن احترام أغلبية النواب الآخرين لأنفسهم أبى عليهم السير فى هذا التيار وبقى الصحفيون سادة للمجلس . وإن كانوا قد تعرضوا فى كثير من الأحيان لأعمال العنف الشديد كالاعتداء عليهم بالأيدى المسلحة أوسلب أمكنتهم أوإقامة القضايا ضدهم أو ما إلى ذلك

وبعد يوم ٩ برميدور حيث سقط روبسبيير اعاد الدستور الذى صدر فى العام الثالث للثورة ، حرية الصحافة من جديد ولم يحاول الحد

منها الا خلال ظروف مؤقتة لاتتعدى فى جملتها عاما واحداً ..

ولما توالت الحملات ذات اليمين وذات الشمال على حكومة الديركتوار (١) عادت مسألة حرية الصحافة لتطرح من جديد أمام مجلس الخمسمائة وصدر قانون ٢٧ جيرمينال (٢) فى العام الرابع للثورة يحمل عقوبة الموت لكل من يعمل على قلب نظام الحكم القائم فى فرنسا ، ولكن الواقع أن هذه القسوة المبالغ فيها لم تكن تطبق فقد كان المحلفون يبرئون بانتظام ساحة كل من يحال اليها من متهمين ..

وأصبحت حكومة الديركتوار هدفا للمنغصات والمشاحنات فطلبت للمرة الثالثة تخويلها سلطات تشريعية ولكن رفض طلبها وسرعان ماتطورت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل اذ تحولت الحرية إلى ضرب من الشطط مما أدى بطبيعة الحال إلى يوم مشئوم للصحفيين . . ففى ٤ سبتمبر ١٧٩٧ قامت حكومة الديركتوار بانقلاب وبدأت العمل فقضت بالنفى على عدد كبير من محررى الصحف وطابعيها . .

ولما انقشعت آثار الضجة الأولى عادت بعض الصحف المغلقة إلى الظهور باسماء مختلفة ولكن منعت خمس عشرة منها من الصدور وعادت المجالس فوافقت من جديد على الغاء الرقابة على الصحف . فاطلقت الصحف الملكية وصحف اليعاقبة لنفسها العنان وردت الديركتوار

(١) راجع هامش صفحة ٤١

(٢) جيرمنيال اسم شهر من أشهر الجمهورية الفرنسية . .

بدورها على ذلك بالقاء القبض على الصحفيين ومصادرة صحفهم وأخيرا جاءت حكومة القنصلية فوضعت حدا نهائيا لهـذه الحلقات المتسلة من النضـال .

صحف الثـورة وصحفيوها

لعـله من الممل تعداد الصحف الدورية التى لا حصر لها والتى كانت منبرا لرجال الثـورة ولـكن تاريخ الصحافة لا يكتمل دون ذكر الكتاب الرئيسـيين الذين نزلوا فى ميدانها . .

وكان ميرابو رائدا لغيره من الـكتاب فنشر فى عام ١٧٨٦ « تحليل الصحف الانجليزية » وفى ٢ مايو من عام ١٧٨٩ نشر « الهيئات العامة » « ثم خطـاب الـكونت ميرابو إلى موكليه » و « بريد الأقاليم » وقد وجه هذه اللفتة إلى ممثلى الهيئات العامة « يجب أن يكفل أول قانون تصدرونه ، الحرية للصحافة بحيث تـكون حرية كاملة لا يمكن الاعتداء عليها ، حرية لا حد لهـا ، حرية بدونها لا يمكن الحصول مطلقا على غيرها من الحريات الأخرى . . »

هذا وقد بشر بقيام الجمهورية قبل مجيئها بوقت طويل ، أربعة من الصحفيين هم بريسو وكوندورسيه عن طريق النظريات الفلسفية وكامى ديمولان عن طريق الحمـاس واستعادة ذكريات التاريخ القديم والأب فوشيه عن طريق تفسير جديد للمسيحية يوفق بين الكثلكة والديمقراطية وقد تلاقى هؤلاء الأربعة على سلم المشنقة .

وأسس بريسو وهو أول صحفي الثورة صحيفة « لوباتريوت فرانسيه » وكتب فى افتتاحيتها فى أول ابريل ١٧٨٩ ما يلى :

« ربما كان من الإهانة للشعب الفرنسى أن نبين له فى إفاضة فائدة هذه الجريدة وضروريتها فى الظروف الحالية . . فمن غير الصحف ما قامت على الإطلاق الثورة الامريكية التى ساهمت فرنسا فيها بدور مرموق كما أن الصحف هى التى عملت على انتشال ايرلندا من الهوة السحيقة التى كان يضعها فيها البرلمان الانجليزى . . لقد كان الدكتور جب يقول أن الصحيفة حارس يسهر دائما على مصلحة الشعب وكان مدير المكتبة برى فى هذا البيان « آخر ما يمكن أن تصل اليه الجرأة فى ظل الحصانة » . . هذا ويمكن اعتبار صحيفة « لوباتريوت فرانسيه » بعد سقوط الباستيل نموذجا صادقا لغيرها من صحف العصر نظرا لانها ضمت بين دفتيها كل تاريخ حزب الجيرونديين . . »

وساهم كوندورسيه فى ١٧ نوفمبر من عام ١٧٩١ فى تحرير جريدة « لا كرونيك دوبارى » التى امتازت بتحرى الدقة فى انتقاء أخبارها وكان يحرر فيها محاضر لمناقشات الجمهورية العمومية وظل فيها حتى أصبح رئيسا لتحريرها . .

وبدأ كامى ديمولان بنشر كتيبات مليئة بالحيوية والمرح والحماس ثم أصدر فى ٢٨ نوفمبر ١٧٨٩ جريدة « ريفولوسيون دوفرانس ايدوبرابان (١) . »

---

(١) برابان اقليم فى بلجيكا

« ها أنذا امتهن الصحافة وإنها لمهمة حسنة إلى حد بعيد ولم تعد مهنة محتقرة مأجورة عبدة للحكومة .. فالصحفى فى فرنسا اليوم يمسك بزمام الموقف وهو الذى يناقش الشيوخ والقناصل بل والحاكم المطلق ذاته » .

وقد هجر أندريه شنييه فى النصف الأول من عام ١٧٩٢ الشعر ليتفرغ للمساجلات الصحفية وأصبح محرراً لجريدة جورنال دو بارى فى حين أنه كان قبل سنتين من ذلك التاريخ قد هاجم فى تحذيره للفرنسيين من أعدائهم الحقيقيين (طغمة المتأدبين الأدعياء عديمى الحياء).

ومن ناحية أخرى لعبت جريدة «لامى دو بو يل» التى أخرجها مارا دوراً كبيراً فى تاريخ الثورة الفرنسية ولكن على نحو مختلف . فقد أحدث العدد الأول منها (الصادر فى ١٢ سبتمبر ١٧٨٩) دوياً هائلا وصادف نجاحاً كبيراً . وكانت سياسة الجريدة تتلخص فى (نشر الذعر) وكانت الجمعية الوطنيـــة فى عرفها لا تخرج عن كونها مجلساً للخونة والأغبياء والمحتالين والجبناء وجمعية لمؤامرات مأجورة مدنسة والبلاط لا يفتأ يتآمر على قوت فرنسا وحياتها والملك خائن وفدم والملكة فى مؤخرة النساء . وكان من الطبيعى أن تتعرض الجريدة والحالة هذه للكثير من المصادمات والمنازعات القضائية مما أدى بمارا للفرار إلى انجلترا .

وفى يوليو سنة ١٧٩٥ نشر كتيبا بعنوان «ماذا يراد بنا » فضح

فيه مؤامـرة مزعومة للقصر وقـد أدت هذه المتفجرات إلى تأجج العاصمة بالنار ودخل مارا فى مسـاجلات عنيفـة مع كامى ودءولان وكتب (ماذا يكون حالنا وأخلاقنـا على ما هى عليه من الليونة إذا لم تـكن هناك حرية الصحافة ؟ * وإذا كنتم مازلتم تتنفسون فانما يرجع ذلك إلى وجود هذه الحرية . وطالب بالمذابح وعين الضحايا وألح فى تشكيل محكمة عسكرية . .)

وبات يحيا بعيدا عن الأنظار بل كثيراً ما كان يلجأ للاختفـاء فى مخابىء سرية وفى البدرومات فى بعض الأحيـان ولـكن شدة تأثيره على الشعب كانت تدعو السلطات العامة إلى التردد فى القضاء عليه .

وما أن أصبح مارا عضواً فى مجلس الثورة عام ١٧٩٢ حتى ضرب مثلا سيئاً إذ أحل جـريدة «لوجورنال دولاريبوبليك » محل جريدة «لامى دوبوبل » .

وعلى أثر صدور القانون الذى حرم الجمـع بين النيابة عن الأمـة ومهنة الصحافة أطلق على جريدته اسم «لوبوبليست دولا ريبوبليـك فرانسيز» وترجمته أديب الجمهورية الفرنسية (مارس ١٧٩٣) وظن بذلك أنه لا يخرق القانون لأنه لم يعد صحفياً بل أديبا .

أما روبسبير فقد أخرج فى يونيو ١٧٩٢ صحيفة (حامى الدستور) لوديفانسور دولا كونستيتوسيون . وهى دورية للمشتركين .

وما أن بدأ مجلس الثورة اجتماعاته غـير اسمها إلى (رسـائل

ماكسميلان روبسبيير عضو المجلس الوطنى إلى ناخبيه) وفيما يلى فضلة من العدد السادس منها :

(الفكر سيد العالم .. ومن ثم ندرك مدى حرص الحاكمين فى جميع العصور على السيطرة على الصحف وعلى كل الوسائل التى توجه الرأى العام . ومن أجل ذلك فقط أصبحت كلمة جريدة مرادفة لكلمة رواية وأصبح التاريخ نفسه رواية) .

وكذلك يتعذر رسم فكرة موجزة عن صحافة الثورة دون ذكر الأب دوشين . ونحن لا نعلم أصل هذا الاسم ولكنه ربما كان مستعاراً من شخصية روائية . وقد ظهرت هذه الشخصية فى نشرتين للتشهير ، إحداهما كانت تسمى « رسائل غاية فى الوطنية للاب دوشين » وكان يخرجها لوميرأحد موظفى البريد؛ وكانت الأخرى تسمى «الأب دوشين سروره العظيم وغضبه الشديد » وكان يخرجها هيبرت . وقد ظهرت كلتا النشرتين فى صورة دورية كالصحف وقدمت كلتاهما دراسات شاملة إلى حد كبير . وأحدث ظهورها ضجة كبيرة لأن الأسلوب الذى كانت تحرر به كان يصادف هوى لدى كثير من القراء وخاصة لدى المعتدلين منهم لأن الذين كانوا يكرهون هذا الأسلوب كانوا يقرأونه إرضاء لأنصاره وكانوا يتباهون به تجنبا لحشرهم فى صفوف المشبوهين .

أما صحيفة « لافوى فيلاجواز أو الصحيفة القروية » فكانت تصدر مرة فى الاسبوع للاهتمام بشئون الطبقة المهملة التى تصلح الريف

بغية تعريفها بالقوانين والحوادث والاكتشافات التى تعنى كل مواطن والواقع أن صحف الاقاليم لم تكن على حد التعبير (تساير الحركة) .

هذا وقد كانت الصحف المناهضة للثورة تطالب بدورها بطبيعة الحال، بالحرية مثل الجريدة الملكية المسماه «آكت ديزابوتر» أى أعمال الانصار .«ويعنى اسمها أنصار الحرية والديمقراطية الملكية »وكان يحررها بليتييه وريفارول وميرابو الصغير وكانت فى رأى لامارتين ضربا من السخرية اللاذعة وانتقاماً للارستقراطية التى كانت تهىء للضغائن الدموية .

ونشرت جريدة «لوتيه» التى أسسها برتن دانتى فى ٢٧ جرمينال(١) من العام الخامس للثورة الفرنسية هذا الاحصاء «صحفيون أعدموا ١٢، اغتيلوا ٢ ، نفوا واحد ، ماتوا من الأسى أو من الخوف ٣ ، هربوا ٣ عذبوا واحد ، سلبوا ٢ . »

ونود أن نكرر أن هذا الاحصاء الإجمالى لأسماء الصحف لايتضمن إلا جزءا ضئيلا من الصحف التى ظهرت خلال السنوات الاولى للثورة.

ولما استولت حكومة القنصلية على مقاليد الحكم كانت الصحافة تحتضر فاجهزت عليها .

وأصدرت فى ١٧ يناير ١٨٠٠ مرسوما يحدد عدد الصحف السياسية

---

(١) جرمينال : اسم شهر من أشهر السنة الجمهورية الفرنسية .

بثلاث عشرة صحيفة ولا يسمح بظهور غيرها فى المستقبل . ولئن كان من بين أصحاب السلطان رجل لم يغفل اطلاقا عن اهمية الصحافة ودورها الفعال فإن هذا الرجل هو نابليون الذى تمكن على حد تعبير جول جانن من (سحقها تحت كعب حذائه) «فقد كانت الصحف تشغل إهتمامه على الدوام وفى كل يوم على وجه التقريب سواء ليحصل من ورائها على مجد أو فائدة أو لكى يستخدمها فى حملاته ضد أعدائه وفى ردوده على مروجى الأشاعات ضده .»

والواقع أنه فرض على الصحف رقابة حديدية للقضاء على أى معارضة حتى تصبح كلها صحافة رسمية أو شبه رسمية غير أنه فى بادىء الأمر أبدى كثيرا من التساهل إذ استدعى من المنفى ثلاثين صحفيا ومنح العفو لستة وثلاثين آخرين .

وعلى الرغم من ذلك فان دستور العام الثامن (١٨٠٠) لم يؤكد حرية الصحافة . وكان نابليون راغبا عن إصدار قانون الصحافة ولكنه وضعها تحت رحمة مدير البوليس وألف نابليون لجنة حرية الصحافة ولكن هذه اللجنة لم تجتمع مرة واحدة .

وكان نابليون يقول (ينبغى على الحاكم أن يجعل الصحافة فى خدمته) وكان قد نفذ هذه القاعدة قبل أن يتولى الحكم بمدة طويلة : فقد أرسل فى ٦ مارس ١٧٩٧ من مقر قيادة الجيش فى إيطاليا بمدينة مانتو(١)

(١) مانتو مدينة بسهل لمبارديا بايطاليا ولد بالقرب منها الشاعر الأيطالى فرجيل أستاذ دانتى واستولى عليها نابليون عام ١٧٩٧ .

مقالا لنشره فى جريدة حكومة الديركتوار . وأنشأ بمدينة ميلانو فى العام نفسه جريدة لوكوريه دولارمى ديتالى التىأستمرت فىالظهور حتى يوم ٢ ديسمبر ١٧٩٨ وكانت هذه الجريدة تتحدث عن الجنرال بونابرت كما لو كان مبعوث العناية الالهية فى إيطاليا ثم أصدر جريدة بعنوان (لافرانس فودولارمى ديتالى) وهى سياسية وإدارية وتتناول الأدب الفرنسى والأجنبى على السواء . وأسس بالطريقة نفسها من أمواله الخاصة صحيفة كوريه دوليجيبت وكان يديرها ويشرف عليها بنفسه .

ولما أصبح قنصل فرنسا الأول أعتمد على جريدة لومونيتور (وجعل منها لسانه عند فرنسا وأوروبا وأنجلتره خاصة . ومنذ ١٨ بروميل (١٧٩٩) لم يعد فى إمكان أى شخص ان يكتب دون الحصول على اذن منه بذلك . ولم تعد الضرورة تقتضى وجود غير صحيفة واحدة هى (لومونيتور) وغير صحفى حر واحد هو القنصل الأول (نابليون) .

والحق أن هذه الصورة ليست من نسج الخيال فقد كان نابليون يعتقد أن من واجبة مهمة توجيه القلم وكان يعتقد انه قدير فى هذا الباب ودليل ذلك ماجاء فى رده من منفاه بسانت هيلانه على مونتولون الذى كان يناقشه فى موضوع كلمة :

(ولكن خبرنى يامولاى اين يمكننا العثور على اسلوبك ؟ وهل اجرؤ على سؤالك عما كتبت حتى نتمكن من الحكم عليه ؟) .

وقد رد عليه نابليون فى حماس :

« راجع بلاغاتى ومقالاتى المنشورة بجريدة لومونيتـور ! . . »
وكتب تيبر فى جريدة لوناسيونال فى ٢٤ يونيو ١٨٣٠ يقول:

« رأينا فى جريدة لومونيتور من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨٠٣ مقالات دبجها نابليون بقلمه للرد على هجوم الصحف الأجنبيـة وهذه المقالات غاية فى براعة المنطق وعلو البلاغة وجمال الأسلوب » .

وكان نابليون يقوم فوق ذلك بمهمة رئيس التحرير فكان يراجع البرقيات ويشير بخطوط كبيرة فى الهوامش على الفقرات التى تنشر منها وكان يملى التعقيبات ويصحح الأصول قبل نشرها ويراقب خطوات جمع الجريدة من تنظيم الصفحات وإختيار الأبواب وما إلى ذلك.

أما من حيث السياسة الخارجية فقد كان يعنى أولا وقبل كل شىء بطبيعة الحال بالعلاقة بانجلترا . وقد ظهرت عام ١٧٩٩ أول حملة صحفية عرفت فى العصر الحديث ضد وليم بت (١) وفى ١٦ أبريل نجد مذكرة حررها القنصل الأول بقلمه . وفى ٢٣ يونيو روت « لومونيتور » فى افاضة تاريخ قرطاجنة على سبيل تحذير أنجلتره : « لقد أرادت قرطاجنة

---

١) وليم بت « ١٧٥٩ — ١٨٠٦ » أنجليزى عدو لدود للثورة الفرنسية نظم ثلاثة أحلاف ضد فرنسا ولكنه لم يتمكن مع ذلك من عرقلة انتصارات نابليون ولا من الحيلولة دون الانهيار المؤقت لتجارة بريطانيا .

أن تسود البحار فعقدت محالفات وأحلاف خطيرة . ولكن قرطاجنة لاوجود لها الآن »

وقد رغب القنصل الأول زيادة على جريدة لومونيتور الرسمية فى أن تكون له صحيفة شبيهة بالرسمية تخضع لمشيئته إلى جانب الصحيفة الرسميه « لومونيتور » فأمر بانشاء صحيفة «لوبولتان دوبارى» .

وبعد ١٨ برومير اكتشف بونابرت فى باريس معاوناً شعر بأنه يمكن أن يعول عليه ونعنى به فيفيه وهو كاتب قدير واسع الأفق ساهم فى تحرير جريدة مركير (عطارد) وتولى إدارة سياسة جريدة (لاجازيت) واقترح عليه السفر إلى انجلتره حيث يرسل اليه بنتيجة ملاحظاته . وقد رضى القنصل الأول عن هذه التجربة الأولى تمام الرضى، حتى أنه طالب مراسله بعد عودته بالاستمرار فى كتابة ملاحظاته على [illegible] الأشخاص والأشياء فكانت هذه الكتابة بمثابة مجلة بالفعل ظلت مخطوطة وسرية واستمرت تحرر أحد عشر عاما وعندما نشرت فى ١٩٣٦ شغلت مادتها ثلاثة أجزاء من القطع الكبير .

الامبراطورية :

لم تحل مهام الامبراطورية دون اهتمام نابليون بالصحافة . وكانت صحيفة «لوجورنال ديديبا» فى عام ١٨٠٣ أقوى الصحف أثرا على الرأى العام وهى الوحيدة التى أحرزت نجاحا ولعبت دورا خلال عهدى القنصلية

والامبراطورية. وكان من بين الذين عاونوا فى تحريرها دوبونالد ورويه كولار وشاتوبريان . وكان المحررون يلجأون عند الضرورة للتعبير عما يجول فى خواطرهم بكلمات غامضة أو عن طريق التلميح .

ثم دخل فوشية وزير البوليس فى معركة مع هذه الجـريدة التى كان فيفيه يتعاون معها ويدافع عنها فى مراسلاته مع الامبراطـور (نابليون) وأفادت هذه الحادثة فى معرفة رأى الامبراطور حول دور الصحافة وواجباتها فقد رد على فوشيه بقوله :

« ليس ثمة وسيلة أخرى للافادة من امكانيات جريدة لوجورنال ديديبا إلا بوضعها فى أيدى بعض المفـكرين المخلصين للحكومة .. فحين ترد أنباء فى غير صالح الحـكومة تمنع نشرها إلى أن نعلم علم اليقـين أن حبسها لاطائل من ورائه لأن كل النـاس باتوا يعرفونها . واعلم كذلك أن تسمية الجريدة باسم جريدة لوجورنال ديديبا (الجدل) تسمية غير مناسبة إذ أنها تذكر بالثورة فينبغى تسميتها باسم جـريدة الامبراطورية (جورنال دولا مبير) أو بأى اسم آخر مشابه له .. »

وقد تم ذلك عنـــد تعيين فيفيه رئيسا للتحرير وفى سنة ١٨١٠ صدرت عدة مراسيم انقصت عدد الصحف وأصبح حق منح الامتياز والغـائه وسيلة للسلب ، وما كان يغتصب من المشكوك فى أمرهم يدفع للـكتاب المخلصين للحكومة والذين يدافعون عنهـــا مما كان سببا فى ثرائهم كما كان سببا فى ثراء رقباء الصحف أيضا ..

وفى مستهـل عام ١٨١١ صودرت ممتلكات جريدة « لوجورنال ديديبا » وضمت لأموال الدولة وتم الاستيلاء على كل مافيها كما لو كانت غنيمة حرب حتى الأموال التى وجدت فى الخزينة والأثاثات كلهـا صودرت دون أدنى تعويض .

وبعد مضى سبعة أشهر وضع وزير البوليس يده على جميع الصحف ونزع ملكيتها من أصحابها دون تعويض واستولى على أموالها وسجلات الاشتراكات وعهد بادارتها لاناس ممن وقع عليهم اختياره .. وأصبح عدد «الصحف اليومية التى تنشر أنباء سياسية » أربع صحف فقط .

أما فى الأقاليم فقد أصبح فى كل مقاطعة جريدة واحدة فقط يشرف عليها الحاكم ولا تظهر إلا باذن خاص منه .

ولقد قال نابليون نفسه وهو ينصت لقراءة بورين للصحف بصوت مسموع بينما هو يتجول ذات اليمين وذات الشمال « لاجدوى من قراءة الصحف الفرنسية على ، فهى لاتنشر إلا ما أريد» وقـد كانت الصحف الانجليزية هى التى تجذب اهتمامه .

ولم يتوقف هذا الضغط عن التزايد حتى عام ١٨١٤ ولما أعيدت الملكية لم يكن أمامها بطبيعة الحال إلا أن ترخى الحبـل نوعا ما .. وكتب بنجامين كونستان فى عام ١٨١٤ يقول :

« فى عهد بونابرت كانت هناك مطرقة من حـديد مرفوعة على الرؤوس باستمرار فالتزم الجميع الصمت لأنهم كانوا يرتعدون فرقا

ولكن الحكومة الحالية لاترغب اطلاقا فى أن تكون إرهابية . .

« .. وأن الحكومات لاتدرك مدى الضرر الذى تلحقه بنفسها حين تقصر حق التعبير والكتابة على انصارها وحدهم إذ لا يعتقد أحد على الاطلاق فيما تؤكده السلطة التى لاتسمح لأحد بأن يعارضها أو يرد عليها بل على النقيض من ذلك أن كل ما يقال ضد هذه السلطة هو المؤكد والمصدق .. »

« إن حرية الصحافة تهب فرنسا حياة جديدة وتجعلها جديرة بدستورها وحكومتها ومصالحها العامة .. وسوف تولد جوا من الثقة لم يكن موجودا فى أى وقت مضى .. »

وما أن دخل الحلفاء باريس حتى أخذ زعماء الحزب الملكى يعملون فى سبيل نصرة « القضية العادلة » فحصل الماركيز دولا جرانج من الجنرال ساكن حاكم باريس العسكرى على أمر بوضع جميع الصحف تحت رقابة أحد الملكيين المغمورين وأن كان معروفا باخلاصه ويسمى موران . ثم جال فى جميع أقسام التحرير ووضع فيها محررين أمرهم جميعا بنشر أنباء مؤداها أن أهل باريس رفعوا الأعلام البيضاء وأن جيوش الحلفاء استقبلت بالهتافات « بحياة الملك وحياة أسرة البوربون ! »٠

وبقدر ما جاء تحول الصحف مفاجئا صار تاما ، ففى ٣٠ مارس كانت جميع الأنباء فى جانب وجهة النظر الامبراطورية وفى أول ابريل

كانت هـذه الصحف نفسهـا تلعن الأمبراطورية وتصف الأمبراطور بالطاغية المغتصب . ولم تظهر الصحف فى يوم ٣١ مارس وا كتفت التى ظهرت منها بنشر أنباء الملاهى أو بعض المقالات الأدبية .

ثم صدر نطق ملـكى وبيـان دستورى لتأكيد حرية التعبير عن الرأى للفرنسيين بشرط الا يتعـارض ذلك مع القوانين التى ينبغى أن تعمل على الحد من اساءة استخدام هذه الحرية، (وأثناء المناقشة البرلمانية أفلح بواسى دنجلاه فى حذف كلمة تبادر التى كانت تسبق كلمة الحـد) وفى ٥ يوليو أى بعـد مضى ثلاثة أشهر تقـدم وزير الداخليـة الأب مونتسكيو إلى مجلس النواب بمشروع قانون ينص على « عـدم جواز صدور الصحف والنشرات الدورية الا باذن خاص من الملك » .

وقد قوبل هذا الأقتراح بضجة شديدة واحتـدت المناقشات حوله ولـكنه أصبح قانون ٢١ أكتوبر . . وكتب لامنيـه وكان قد دخل المهنة منذ أمد قصير يقول :

« أخشى أن تكون الثورة قد اقتصرت على احلال طغيان قوى محل طغيان ضعيف . . فان تحققت مخاوفى فلن يعود لى دور وسوف أغادر فرنسا غير آسف عليها . . »

المـــائة يوم : (١)

وبمجـرد عودة نابليون يوم ٦ مايو ١٨١٥ أرسلت الهيئـات اليه

(١) المائة يوم هى الفترة التى انقضت من يوم عودة نابليون من منفاه فى =

بالتهنئة حيث اطنبت فى الاشادة بالحريات وحقوق الشعب ..

ولم يكن « العائد » بونابرت ليشعر وقتئـذ بالقوة التى تسمح له باغتصاب الرأى العـــام أو باخضاع المقاومة المؤقته . وفى ٢٥ مارس ألغيت الادارة العامة للمطبوعات والمكتبة ، كما ألغيت الرقابة .. فقـد كان نابليون يرغب بصفة خاصة فى ارساء قواعد حكمة من جديد وكان يعلم أنه لن يتمكن من ذلك عن طريق استخـدام القوة فى أول الأمر على الأقل فاستدعى بنجامين كونستان وهو أحد الذين حاولوا مقاومة عودته وطلب رأيه فيما ينبغى اتباعه من سبل . ولامراء فى براعة هذا الاجـراء فقد قال له نابليون « أرجو أن تزودنى بأفكارك فيما يختص بالمناقشات العلنية العامة والانتخابات الحرة ومسئوليةالوزراء وحرية الصحافة ، وإنى أرغب فى كل ذلك وخاصة مسألة حرية الصحـــافة فخنقها رأى غير سديد وإنى مقتنع بذلك » ..

وأخذت كل الصحف التى كانت منذ عام مضى قد غيرت اتجاههـا

جزيره البا الى باريس يوم ٢٠ مارس ١٨١٥ حيث كان لويس الثـامن عشر قد غادرها فى الليلة السابقة الى يوم ٢٢ يونيه من العام نفسه حيث تحالفت عليه دول اوربا وكانت هزيمة ووترلو واضطر الى التنـازل عن العرش من جديد ورحل إلى جزيرة سانت هيلانه حيث مات .. وتعرف فترة المائة يوم بأن الحـكم خلالها كان حرا إلى حد ما وبصدور القوانين المـكملة للحريات ..

خلال أربع وعشرين ساعة حين وصول الحلفـــاء إلى باريس، ترحب بالاجراءات التى اتخذت فى صالحها ونصت عليهـا القوانين المـكملة .
وجدد نابليون فى ٧ يونيه أثناء افتتاح دورة المجلسين تأكيداته نحو صيانة الحريات ..

عودة الملكية من جديد :

ولم يلبث أن عاد الملك فكان على الصحفيين أن يغيروا اتجاههم من جديد .. وبدا على الملك أنه متشبع بالاتجاهات الحرة فعادت للصحافة حريتها فى ظل الملـكية ولم يعرف فى تاريخها أنها لعبت دورا أخطر من ذلك الذى ارتضته انفسها .. وكان من الصعب العثـــور على شخصية معروفة من شخصيات هذا الجيل لم تشتغل بالصحافة فقد عمل بهـــا شاتوبريان ، وبنجـامان كونستان وروييه كـولارد ، ودوبونالد ، ودوبارانت ، ولامنييه ، وثلاثة من أســاتذة السوربون هم كوزان وجويووفيلمان وكذلك ساسى ولامارتين . وحمى وطيس المنازلات العنيفة بين الصحف الملـكية والصحف التى تناصر بونابرت وتلك التى أرادت الاحتفاظ بالحريات المـكتسبة عام ١٨٨٩ ..

ولـكن هذا النظام لم يدم مدة طويلة . ولم تعان الصحف مثـــل ما عانت فى ظل هذا العهد من تقلبات متعاقبة مع ماسببته من متاعب للوزراء الذين توالوا على الحـكم مثل : فوشيه وديكاز وريشيليو .

وقد حاول كل بدوره وبدرجات متفاوتة فى النجاح ، تـكميم الصحف الجامحة ، وعند نهاية عام ١٨٢٠ أصبحت كلها ذلولا إلى حين ..

وبينما أخذت الصحف البـــاريسية تخبو مؤقتا تقدمت صحف الاقاليم تقدمـا ملموسا وأصبحت أغلب صحف المقاطعات أداة سياسية لها خطرها . .

وعملت الرقابة منذ البداية على القضاء على هذه اللامركزية مما أدى بانصار النهضة الاقليمية إلى الاتجاه للدعاية المستترة للجمعيات السرية وكان من أثر فرض الرقابة أيضا أن عجلت بنمو المؤامرات التى بدأت تتفجر منذ العام التالى فاضطر روشيليو للاستقالة فى ١٢ ديسمبر ١٨٢١ واختفت الرقابة ولـكن بصفة مؤقته كالمعتاد . .

وسرعان ما شغلت المحـاكم بالقضايا الصحفية التى انتهى بعضهـا بالبراءة .. ولما عجزت الحـكومة عن ايقاف الصحف أوالغائها بطريق السلطة القضائية عقدت العزم على شراء ذممها . . وخصصت لذلك مبالغ كبيرة تقدر بأكثر من مليونين أدرجت [illegible] ميه والسرية [illegible]

ولـكن سرعان ما اصطدمت هذه الخطة بمقاومة عنيفة بعد ظهور بعض الفضائح وذلك على أثر فصل فيليـل رئيس الوزراء لشاتوبريان وزير الخارجية الذى أصبح من أعدائه ووجد فى « جورنال ديديبـا » منبرا يوجه منه هجماته كل صباح .. وتجمعت المعـارضة الحرة كلها فى

معسكر واحد إلى أن ... اعيدت الرقابة بمرسوم فى ١٥ أغسطس . .

وما أن تولى شارل العاشر العرش عام ١٨٢٤ حتى اعاد للصحافة حريتها فى ٢٩ سبتمبر ، الأمر الذى اكسبه نوعا من الشعبية إلى حدما (ولكن هل كان للرأى العام أن يخدع فى امكان دوام اجراء اتخذ فى مستهل العهد ؟ . .).

وكانت المنازعات الدينية التى أخذت تتزايد يوما بعد يوم قد بدأت تثير النفوس أثارة عنيفة واكتسحت المسائل الدينية فى سيرها ماعداها من الأمور وأصبحت حملات الصحف حامية الوطيس . . وقدمت جريدتا « كونستيتسيونل » و « كوريه » للمحاكمة ولكن برئت ساحتيهما فرفعت الحكومة القفاز استعدادا للمعركة . .

وكان الضيق قد أخذ بخناق فيليل فتمادى تحت تأثير رجال الدين فى السير فى سبيل الكبت . . وتقدم فى ١٩ ديسمبر ١٨٢٧ بالقانون الذى اطلق عليه اسم « العدالة والمحبة » . وقد صيغ بطريقة « غاية فى الدهاء إذ يمنح الحاكم سلطات لا حد لها وينطوى على وسائل العنف التى لانظير لها وادنى ما يرمى اليه هو محو المطبعة فى فرنسا » [1] . وقد أثارت قراءة المشروع فى المجلس هياجا شديدا ولما عرف أمره خارج أروقة المجلس أثار سخطا شديدا من جميع طبقات المجتمع . . فأرسلت

---

(١) هاتان : الكتاب السابق الذكر . .

العرائض والاحتجاجات من أقاصى البلاد .. بل أن الاكاديمية الفرنسية نفسها تحركت للاحتجاج عليه .

وبدأت مناقشة مشروع القانون فى ١٤ فبراير ١٨٢٨ واستمرت شهراً . وعلى الرغم من استخدام رو بيه كولارد لبلاغته وقوله المشهور « فى ظـل الحرية المختنقة ينطفىء الذكاء » فقـــد تمت الموافقة على القانون .

ولمـا حان موعد عرض مشروع القانون بعد ذلك بسبعة أيام على مجلس الأعيان أبدى المجلس له من العـداء ما حمل الوزارة على سحبه خوفا من الخذلان .

وأظهرت صحف المعارضة غبطة لاحد لها وسارت المظـاهرات فى الشوارع وأضيئت الأنوار فى المساء كما عمت مظـاهر الابتهاج بعض المدن الأخرى لهذه المناسبة ..

وقامت الوزارة بحل مجلس النواب وفرضت على الصحـافة رقابة غاية فى الصرامة وقبل حلول موعد الانتخابات « الحرة » تنحى فيليل عن الحكم وتولى الوزارة بدلا منه مارتنياك فى مستهل شهر ينـاير من عام ١٨٢٨ . .

وفى ١٤ أبريل حصل وزير العدل بورتالى على موافقة المجلس على قانون يحل محـــل الرقابة واحتـكار النشر بضمانات أكـثر وعقوبات رادعة .

فى هذه الفترة كان أدولف تيير قد وصل منذ وقت قصير من أكس آن بروفيس ليبدأ عمله كصحفى فى جريدة « كونستيتسيونل » صحيفة « الدردشة الشعبية » .

كما أسس بيير لورو وديبوا صحيفة « لوجلوب » وقد بدأت أدبية فلسفية ثم صارت سياسية عند سقوط فيليل وكانت لسانا للحركة الثقافية فى هذا العهد وكانت أدبية فلسفية مولعة قبل كل شىء بالحرية السياسية . وكان يحررها دور يموزا . وفى عام ١٨٢٩ و ١٨٣٠ دافع جيزو واصدقاؤه عن المبادىء الحرة فى جريدة « لوطان » التى كانت قد تأسست منذ قليل .

وكانت الصحافة صحافة رأى قبل كل شىء . وكان توزيعها محترما جدا فقد كان لجريدة « الكونستيتسيونل » ٢٠٫٠٠٠ مشترك ولجريدة « ديبا » ١٢٫٦٠٠ مشترك وهذا يوضح أهمية الدور الذى قام به الصحفيون خلال أيام يوليو التاريخية .. [1]

---

(١) أيام يوليو التاريخية سنة ١٨٣٠ هى الفترة التى ثار خلالها الباريسيون على شارل العاشر بسبب المراسيم الرجعية التى كان يستصدرها دوبولينيا رئيس الوزارة وانتهت الثورة بعد أن دامت يومين فى باريس بعزل شارل العاشر رأس أسرة البوربون وتولية لويس فيليب الحكم . وسميت هذه الملكية بعد ذلك بملكية يوليو ..

فقد سبب تولى بولينياك الوزارة هياجا عاما فى الصحافة المتحررة فظهرت لوفيجارو مجللة بالسواد فى أغسطس وحكم على مديرها بالسجن ستة أشهر وبغرامة ألف فرنك .

ولم تعد جريدة كونستيتسيونل تكفى وحدها مما دعا تيير ومنييه وكارل إلى اخراج لوناسيونال فى ٣ يناير ١٨٣٠ لمتابعة الكفاح ضد السلطة ..وقد لخص تيير موقف الجريدة بقوله انها جريدة « الملكية غير المستبدة » .

وكانت جريدة لوناسيونال تتوقع كل صباح حدوث انقلاب فى وقت قريب ونشرت جريدة لومونيتو فى ٢٦ يوليو المراسيم الشهيرة التى كانت تستهدف القضاء على النظام النيابى ولم يعد من حق أى جريدة بمقتضى هذه التشريعات موالاة الظهور دون الحصول على اذن بتجديد رخصتها كل ثلاثة شهور .

وعقد عدد كبير من الصحفيين ورجال السياسة اجتماعا فى مقر جريدة لوناسيونال واقترح تيير توقيع احتجاج جماعى ونشره فى جميع الصحف فى نفس الوقت . . وقد وقع على هذه الوثيقة أربعة واربعون شخصا من المحررين ورؤساء التحرير وورد فيها ما يلى « لقد خرقت الحكومة اليوم مبادىء العدالة . . وسوف نواصل نشر صحفنا دون التقدم بطلب الحصول على الاذن الجديد المفروض علينا » .

وصدرت أوامر بالقبض على الموقعين على الاحتجاج ولكن الصحفيين علموا بها فى الوقت المناسب وعمدوا إلى الاختفاء .. وقوبلت محاولات البوليس الخاصة بمصادرة الصحف واغلاق المطابع بمقاومة شديدة حتى صار الحى الواقع فيه شارع ريشليو وميدان الايطاليين بباريس محلا لهياج دام يوما بأكمله . .

ملكية يوليو :

خرجت ملكية يوليو[1] إلى الوجود نتيجة ثورة يقول المؤرخون أنها قامت عن طريق الصحافة ومن أجلها .. وصدر ميثاق سنة ١٨٣٠ الذى اعترف بحق كل فرنسى فى « اذاعة ونشر آرائه بحرية فى حدود القانون » . واعلن العزم الأكيد على عدم اعادة الرقابة من جديد وصدر قانون يعيد لمحاكم الاستئناف شئون البت فيما يصدر عن المطابع من مخالفات . . ولم تعرف الصحافة عصراً تمتعت فيه بحرية مثل هذا العصر .

فقد كانت ثورة يوليو بمثابة نقطة تحول عميق فى الأفكار والعادات ويقول فى هذا تورو دانجن.

« قليلا ما عانت النفس الانسانية مثل هذه الهزه . . والظاهر أن

(١) راجع هامش صفحة ٦٧ . .

جميع العقول قد أصيبت حينذاك بضربة شمس يوليو .. ولم يعد حدوث أى شىء جديد أمرا محالا » .

وقد استخدم أنصار الملكية الصحافة كسلاح يحاربون به الاستبداد وكتب الفرد نتمان فى كتابه عن (تاريخ الأدب الفرنسى فى ظل حكومة يوليو) يقول :

« لقد أصبح الجميع صحفيين ، فرجل الدين والسيد الكبير والقاضى والعسكرى والعالم والنبيل والنائب السابق والطالب شحذوا جميعا أقلامهم ليعاونوا فى الصحافة الدورية القوية القائمة فى ذلك الحين . . وكانت مثل هذه الصحافة منبرا أسهل وأبعد صدى من الصحف اليومية .. »

وكان لملكية يوليو منذ البداية نوعان من المنافسين احتفظت بهما طوال فترة قيامها ونعنى بهما ؛ من حلت محلهم فى الحكم ومن عارضوا فى قيامها . وبذلك اتحد المهزومون فى يوليو والحزب الديمقراطى ضد العرش . .

وكانت الظاهرة الأكثر وضوحا فى صحافة اليمين هى اتجاه البعض إلى فصل مصالح الدين الكاثوليكى عن مصالح الملك وتأليف مذهب جديد فى الديمقراطية المسيحية . وكان الأب لامنييه من المتحمسين لهذه الحركة وعلى رأسها .. فأخرج فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٣٠ صحيفة لافنير (المستقبل) بالاشتراك مع لاكوردير ومونتالمبير

وكثير من الآباء للدفاع عن الشعارات مثل « الله والحرية ـ البابا والشعب .. الخ .. »

وتجدر الاشارة فى هذا المجال إلى جريدتين ملكيتين محافظتين هما :

جريدة (ديبا) ـ وكانت تدافع عن صاحب السلطان وعن النظام فى ظل الحرية وتترجم الأمر الواقع وكانت فى رأى لامارتين « النشرة اليومية للوزارة » .. وجريدة (لابريس) التى كانت تعبر عن رأى أهل الوسط من اليمينيين فكانت أقل الصحف الأخرى انحيازا للوزراء وكان جيراردان ينفخ فيها من جرأته وحيويته وحماسه ..

وفى عام ١٨٣٠ بلغت جريدة (كونستيتسيونيل) ذروة المجد . وباتت مكاتبها مركزا لتوجيه السياسة والمقر الحقيقى للحكومة .

وكان من بين الصحافة الديمقراطية جريدة (لوناسيونال) لمحررها « ارمان كاريل » :

وفى ١٨ يناير سنة ١٨٣١ ظهرت (جريدة مذهب سان سيمون) وكان هذا المذهب فى الواقع دينا كاملا يقوم على العقيدة التى تذهب إلى أن الأوضاع الاجتماعية ينبغى أن تستهدف تحسين الظروف المعنوية والثقافية والجسمية للطبقة الغالبة من حيث العدد فى المجتمع .. وقد حول انفانتين هذه المدرسة إلى كنيسة بمعاونة بيزلور واميل بريير وكانت جريدة لوجلوب لسان حالهم .

وسرعان ما أفسح مذهب سان سيمون المجال أمام مذهب فوريه الذى أخذ فيكتور كونسيديران يبشر به فى جريدة فالا نستير ثم بعد ذلك فى جريدة « فلانج » وفى جريدة « لاديموكراسى باسفيك » أى الديمقراطية المسالمة حيث أبرز آراء أساتذة الأقتصاد [1] مؤجلا مسألة تحقيق التجانس الاجتماعى على نحو كامل إلى حين . .

وقد ردت الحكومة على دعاية منافسيها باتخاذ اجراءات شديدة . ورغبت وزارة كازعير - بريه فى حبس الصحفيين الذين يحقق معهم حبسا احتياطيا وقد أجاب كايل على ذلك بقوله « ينبغى ألا يقال بعد ذلك أن هذا النظام لن يتمادى فى الطغيان الذى يمكن أن يوصف بأنه تشريع للفعل الفاضح العلنى .. أن كل كاتب يحس بقيمته كمواطن سوف يعارض خرق القانون بالقانون وسيواجه القوة بالقوة . . هذا واجب مقدس وليكن ما يكون » . .

وبات الليلة التالية مسلحا فى مكاتب جريدة لوناسيونال ولكن السلطة لم تتصد له فكان انتصارا ولكنه كان مؤقتا . . ذلك لأن بارت وزير العدل كان قد أصدر قرارا بأن تتعقب النيابة كل شطط فى القول أو الكتابة ..ونتيجة لهذا الاجراء نالت الصحف الملتزمة حدود القانون نصيبها من القضايا ونظرت خلال عامين فقط ٤١١ قضية

(١) شارل فوريه (١٧٧٢ — ١٨٣٧) فيلسوف واجتماعى فرنسى صاحب المذهب المنسوب اليه ويدعو إلى تجمع الأفراد فى جماعات أو كتائب متجانسة توفر لكل عضو فيها حياة رضية عن طريق العمل الذى يقبله الجميع عن طيب خاطر ..

صحفية . . وفتح باب التبرعات العامة لمعاونة الصحف المحكوم عليها بشتى الجزاءات . . وتألفت جمعية تحت اسم «جمعية الدفاع عن الصحافة القومية» . . وكان من بين أعضائها العاملين اتيين أراجوه وكاريل وكافينياك وديبون دوليروجارنييه باجيه ولافاييت وراسباى. وظلت كل هذه المطاردات عاجزة عن تأدية الغرض منها . وأخذت الحكومة تنظر فى إصدار تشريعات أشد زجرا ومنها الصادر فى ١٦ فبراير ١٨٣٤ وينص على إخضاع كل من ينادى أو يوزع المطبوعات فى الطرق العامة لسلطة البلدية ورقابتها . .

ثم قام فيسكى فى ٢٨ يوليو ١٨٣٥ بمحاولة قتل لويس فيليب مما زاد بطبيعة الحال من شدة الصراع بين الحكومة والصحافة ، خاصة وان الصحف كانت قبل وقوع الحادث بعدة أيام قد أخذت تتنبأ بحدوث حدث فى ذلك التاريخ . .

وعمدت حكومة بروجلى إلى الحصول على الموافقة على «قانون سبتمبر» وتطوع مجلس الوزراء وكان من بين أعضائه جيزو ، وتيير وبرسيل بصد الهجمات الموجهة ضد شخص الملك والمبدأ الذى تسير عليه الحكومة . وذلك عن طريق الغاء الصحف الجمهورية وكذلك المناصرة لشارل العاشر . . وجاء فى مبررات هذا القرار أن « حرية الصحافة لاينبغى أن تطغى على غيرها من الأوضاع .: وهى فى حد ذاتها يجب أن تكون محدودة بواسطة الدستور . . »

وقد تسببت الموافقة على القانون فى إحداث هياج شديد من الجانبين. إذ أن انصار الحكومة أنفسهم اعتبروه علاجا غير كاف وغير موفق، فى حين أنه اثار فى المعسكر الآخر غضبا ظل سائدا ردحا طويلا من الزمان ..

وتظاهرت الصحافة بالرضوخ والاستسلام والواقع أن القانون لم يقف حائلا دون تقدمها؛ بدليل أنه ظهرت بعد ذلك بعدة شهور الصحف الرخيصة الثمن . وحدد أميل جيراردان قيمة الاشتراك السنوى فى جريدة « لابريس » التى ظهرت فى أول يوليو من عام ١٨٣٦ باربعين فرنكا (بدلا من ثمانين) وكتب فى هذا الصدد يقول « نحن نعرف تماما أن ثمانين فرنكا تمثل على وجه التقريب الايراد السنوى لرأسمال يتراوح بين ستة وثمانية آلاف فرنك من الأرض الخصبة .. ومن أجل هذا قامت جريدة « لابريس » بثورة شاملة فى عالم الصحافة اليومية على الرغم من الضرائب الحكومية الباهظة . »

وكان ممن ساهموا فيها بلزاك والكسندر ديماس وتيوفيل جوتييه وجرانييه دوكازنياك وجزلان وفيكتورهيجو وأيوجين سو، وأيجين سكريب، وجول صاندو، ودلفين جاى (مدام دوجيراردن)..

وقد آثار هذا التجديد غضبا شديدا بين مديرى الصحافة القديمة والمساهمين فيها، فاحتدم نقاش عنيف، اصطحب بالاهانات بين جيراردن وكاريل صاحب جريدة « ناسيونال » اختتم بمبارزة بينهما كلفت الأخير

حياته فى ٢٠ يوليو ١٨٣٦ . .

والواقع أن نجاح هذه المحاولة كان كبيرا إذ تدل سجلات إدارة البريد على أن الصحافة المحليـة كانت تتألف من عشرين جريدة بلغ عـــدد مشتركيها فى عام ١٨٣٥ سبعين الف مشترك وتجاوز عدد المشتركين فى باريس فى عام ١٨٣٦ مائتى الف مشترك فى ستة وعشرين جـريدة يومية .

وقد تمـكن جيراردن من خفض سعر جريدته بفضل الاعـلانات التى باتت موضع اهتمام منافسيه . .

ثم نبتت فى رأس شارل دوفيرييه تلميذ انفانتن فـكرة استئجـــار مساحات الاعلانات فى الصحف وفتح عدة مكاتب فى باريس لقبـول اعلانات الجمهور . .

هذا ولم تعد السياسة بعد أن أصبح مجالها وعر المسالك طعما كافياً لاجتذاب جماهير القراء واضحى أصحاب الصحف يجرون وراء رغبات الجمهور ويعملون على الترفيه عنه أكثر ممـا يعملون على تثقيفه . . ومن أجل ذلك نشأت فـكرة القصة المسلسلة .

وأدى هذا التطور إلى ما كان قد تنبأ به ارمان كاريل ونعنى به تدهور القيم الاخلاقية فى الصحافة وهبوط اعتبارها . وليس من شك فى أن الصحافة لم تتمكن من تخطى كل ما تعرضت له من عقبـات فى سبيل المضاربة دون أن تتنازل من أجل ذلك عن الـكثير من وقارها

ثم أخذت الصحافة تستأنف رويدا رويدا صراعها ضد الحكومة. ففى نوفمبر من عام ١٨٣٩ أخرج الفونس كار المحرر فى صحيفة «لوفيجارو» مجـــلة صغيرة الحجم سماهـــا « ليجيب » وجعلها للنقـــد اللاذع والسخرية البارعة .

وظهرت فى السنة نفسها جريدة سرية باسم «لومونيتور ريبوبليكان» أى الواعظ الجمهورى وكانت تلقى فى الدكاكين وتدس من تحت أبواب المنازل وتنشر عبارات كالآتية :

« لن يمكننا تحقيق أى شىء دون البدء بضرب رأس الطغيان أو بعبارة أخرى بقتل لويس فيليب وحاشيته .. »

واستمرت الحملات فى عهد جيزو الذى تولى الوزارة فى أكتوبر ١٨٤٠ إلى أن نشرت جـــريدة « لافرانس » فى ٢٤ ينـــاير ١٨٤١ سلسلة من الخطابات منسوبة للويس فيليب، فصودرت الأصول وألقى القبض على رئيس التحرير ونائب منطقة مونتور ولـــكن محاميها تمكن من تـــبرئة ساحتيهما ..

وفى عام ١٨٤٥ ظهرت جريدة « ايبوك أى العصر » فكانت أول جريدة تعرض المسائل القانونية ..

والواقع أن المجلات كانت عديدة فى ظل ملـــكية يوليو ومنها «مجلة العالمين » التى تأسست عام ١٨٢٩ واهتمت بالنقد الفلسفى والأدبى والمقالات التى تعالج السياسة العليا..ومجلة «باريس» المعاصرة وقد تخصصت فى نشر

لأبحاث الأدبية التى تعلو على مستوى الصحف اليومية ولا تكفى لنشرها فى كتاب قائم بذاته .

وقد ساهم الروائيون فى الصحافة الدورية وكتب بلزاك مؤسس مجلة « لا كورنيك دوبارى » ومجلة « لاريفو باريزيين » ضد زملائه الصحفيين جملا بالغة القسوة نشرها فى مجلة «مونوجرافى دولا بريس باريزيين » قال فيها :

«إننا نقتل الصحافة كما نقتل الشعب بمنحها الحرية .. مادام الصحفى يرى أن كل ما هو محتمل صحيح وأمر واقع .. ولو لم تكن الصحافة قائمة بالفعل لكان الواجب عدم وجودها »

ثم نشر فى مجلة « ذات العيون الذهبية » مدحا مستطابا جاء فيه « الصحفى فكرة تسير إلى الأمام » ...

الصحافة خارج فرنسا

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

لم تكن المجهودات التى كان يبذلها نابليون من فوق عرشه الامبراطورى فى سبيل توجيه الصحافة الفرنسية لتخفى على أحد من انداده الأوروبيين .. فقد كان مترنخ يراقب وسائل نابليون فى كثير من الأعجاب .. وكتب فى ديسمبر عام ١٨٠٥ إلى وزيره كوبنتزل يطالبه بضرورة (الاتصال بالأمة وتقليد صحف « لوجراند ارمييه »

و« لومونيتور ») .

وقد صرح بعد ذلك لأحـد الديبلوماسيين بقوله « إن الصحف كانت تساوى بالنسبة لنابليون جيشا مؤلفا من ثلاثمائة ألف مقاتل . »

الصحافة فى بريطانيا العظمى:

شهدت السنوات الأخيرة من القرن الماضى كما سبق أن ذكرنا مولد جريدة التيمز (المستقلة والتى تميل إلى المحافظين) وازدهـار صحف أخرى مثل « بيلك لدجر » و « مورننج كرونيكل » (الخاصة بحزب الأحرار) و « مورننج بوست » و « مورننج هيرالد » ..

ولم تتوقف الصحف الانجليزية عن السير فى طريق التقدم .. من الناحية التجارية فارتفع عدد المطبوع منها إلى أكثر من الضعف وزاد عدد القـــراء من تسعة ملايين ونصف مليون فى ١٧٦٠ إلى أربعة وعشرين مليونا فى سـنة ١٨١١ وبلغ تسعة وعشرين مليونا فى سنة ١٨٢٠ ..

وفى عام ١٨٠٣ ابتدع جون والتر الثانى مدير جريدة التيمز طريقة فى الاعلام اصبحت مصدرا جوهريا من مصادر الحصول على الأنبـاء بالنسبة للصحافة الحـديثة وأعنى بها تعيين مراسلين خاصين بالخـارج (وينسب كوشيفال ـ كليرنى هـــذه الفـكرة الى تيوتس الشريك فى ملـكية جريدة هيرالد) .

وابتدع جيمس برى الذى اشترى جريدة مورننج كرونكل فكرة مثمرة أيضاً وان كانت أقل قابلية للتعميم، فقد أشيع أنه كان يحصل على تفاصيل ما يجرى فى البرلمان عن طريق تاجر خمور كان يعمل فى الوقت نفسه بوابا بمجلس العموم .

وشهدت بريطانيا خلال هذا العصر موجة من النزال الشخصى العنيف المصحوب بالمبارزات القاتلة والقضايا والاتهامات . فقد قضى على جون والتر بالسجن ستة عشر شهرا لنشره بعض النكات ضد ابن جورج الثالث وقضى على جيمس برى بالسجن ثلاثه أشهر لنشره مقالا محابيا لفرنسا !! . .

وكانت المدة من عام ١٨١٥ الى عام ١٨٢٥ فترة ازدهار بالنسبة للصحف البريطانية . . فكانت الصحف اليومية فى حجم يماثل ضعف حجم أكبر الجرائد الفرنسية . وتجدر الاشارة هنا إلى ما ابتدعته التيمز من نشر « الرسائل الصغيرة » فى العمود الرابع من الصفحة الأولى .

هذا وقد أصبحت تكاليف التحرير والطبع فيما بعد ضخمة الى حد كبير . . إذ أضيفت عليها مصروفات البريد والضريبة على الورق حتى أن الحال باتت تقتضى توفير رأس مال يزيد على المليون (فى ذلك الحين) قبل التفكير فى اخراج عدد واحد . . وكذلك لم يخرج إلى عالم الوجود الا عدد ضئيل من الصحف الجديدة . .

وقد حاول اصحاب الصحف الدورية للسبب نفسه بكل الطرق التهرب من الضرائب والتى كان يرجع تاريخها إلى سنة ١٧١٢ وأخيرا خضعت الحكومة للأمر الواقع وخفضت الضرائب فانتهت وسائل التحايل . .

وكان جمهور القراء أقل عددا فى لندن منه فى نيويورك أو باريس بسبب ارتفاع أسعار الصحف فضلا عن أن عدد المشتركين كان أقل فى العدد أيضا . فقد كان الجمهور لا يقبل فكرة تلقى جريدة واحدة بالذات على الدوام وكان يكثر من التنقل مما لا يسمح له بتذوق مزايا الخدمة المنتظمة .

ولعل الصحف الانجليزية كانت أكثر صحف أوربا اضطهادا ، فمنذ زمن حرب التحرير الأمريكية ومنذ أيام الثورة الفرنسية كانت القضايا ضد الصحف ترفع كل يوم على وجه التقريب وفى صورة عنيفة ولم تقلع الحكومة عن هذه السياسة الا فى عام ١٨٢٣ . .

وقد تسببت هذه السلسلة الطويلة من الاتهامات المكدرة المهينة فى الاساءة لسمعة الصحفيين الذين أصبح يطلق عليهم ذوو اقلام رخيصة .

الصحافة فى الولايات المتحدة :

امتازت صحافة الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر باهتمامها

الواضح بالاخبار المحلية ولعل هذا الاتجاه يرجع إلى سبب مادى وهو أن الضريبة كانت تتزايد بنسبة المسافة .

ولكن التقدم كان سريعا . ففى عام ١٨٠٠ لم يكن بالولايات المتحدة الأمريكية الا ٢٠٠ صحيفة منها ١٧ جريدة يومية اما فى عام ١٨٥٠ فقد وصل هذا العدد إلى ٢٫٨٠٠ صحيفه وفى عام ١٨٥٧ بلغ ٤٫٠٠٠ صحيفه على وجه التقريب ..

ولم تظهر الآداب والعلوم والفنون على صفحات الجرائد إلا فى عام ١٨٢١ حينما ظهرت صحيفة « لاجازيت ناسيونال » التى أخرجها كما أخرج غيرها روبرت والش بعد عودته من رحلة إلى أوروبا . .

وقد اصبحت هـذه الفكرة مثارا للتقليد ولاقت نجاحا كبيرا ربما كان سببه يعود إلى المستوى المنخفض الذى انحدرت اليه أغلبية الصحف فى ذلك الحين . . فقد جاء فى تقرير مقـدم للنائب العـام لولاية ماساشوسيت أنه فى الفترة بين أول يونيو ١٨١١ وفبراير ١٨١٢ ظهرت فى صحف بوسطن ٢٥٣ مقاله فيهـا من التشهير ما يقع تحت طائلة القانون . فوافق الكونجرس على قانون يخول الحكومة سلطة إقامة الدعاوى .. وكان أن انتخب جيفرسن رئيسا للولايات المتحدة فأمر بالتنازل عن القضايا التى كانت قد رفعت بأمر سابقيه ، أما القانون فقد مزق بأيدى من طالبو بسنه وبقى كأن لم يكن دون الغاء . .

وكانت جريدة «هيرالد» عميدة الصحف التى ظهرت فى عام ١٨٣٣

رخيصة الثمن ، فقد عمد مؤسسها جيمس جوردن بنيت إلى تغطية مصروفاته العامة عن طريق المبيعات وعدم انتظار الربح إلا عن طريق الاعلانات وبذلك افلح فى إخراج الصحافة من خمودها وكانت حتى ذلك الحين لاتدر إلا ارباحا ضئيلة ودخلا قليلا وأجرا غير كاف للتحرير إذ كان أجر الصحفى يقل عن أجر عامل على قدر بسيط من المهارة ..

وقام جوردن بنيت بكل ما يمكنه عمله لاحراز النجاح ، فاستخدم البرق وشبكات المراسلات وأرسل القوارب لمقابلة البواخر الأوروبية واستخدم المبالغة فى ابراز مادة الصفحات ولم يدع رأيا غريبا فى السياسة إلا نشره . وخصص لأوروبا طبعة أسبوعية خاصة فيها موجز للاخبار الأمريكية خلال أسبوع مما اكسبه احتراما كبيرا بين مواطنيه على الرغم مما كان يؤخذ عليه من سلوك عدوانى ..

والخلاصة أن الصحافة الأمريكية فى القرن التاسع عشر لعبت دوراً هاما فى تثقيف الشعب وقامت بمهمة خطيره كاداة للاعلان ..

الصحافة فى أوروبا الوسطى:

وفى عام ١٨١٥ داعب شعوب هذه المنطقة أمل فى بلوغ الحرية ولكن رؤساء الدويلات التى انضوت تحت الاتحاد الألمانى كانوا قد وضعوا لكل منها تعليمات مشددة قبل سن القانون الموحد .

وبعد عام ١٨٤٠ أخذت موجة اليقظة للتحرر فى الظهــور وبدأ الوعى يزداد بجلاء بين عام ١٨٤١ وعام ١٨٤٣ وكان من أشهر الصحف التى خرجت فى ذلك الحين جريدة « راينينج زايتونج » فى كلونيا ..

وعمل بها كارل ماركس فى عام ١٨٤٢ وسرعان مالمع أسمه كاحد الصحفيين الممتازين ومن أقدرهم على ذكر كل ما يريد قوله فى غــير عنف .. وكان يلخص المناقشات التى تجرى فى المجلس النيابى لبروسيا ويعلق عليها بآرائه الشخصية . وكان يهتم بصفة خاصة بالطبقة العاملة وبالفلاحين فى وادى موزيل ..

أما فى النمسا فكانت وطأة الرقابة أشد ثقلا : وعلى وجه العموم كان التطلع إلى الاستقلال وما يقابله من وســائل الكبت متماثلا فى أوروبا كلها سواء فى ايطاليا أو روسيا حيث بلغ عدد مكاتب الرقبــاء المتخصصين اثنين وعشرين مكتبا خلال حكم نيقولا الأول .

ولم تشذ عن هذه الدول غير اليونان التى سمحت بحرية نسبية ..

التطورات الاقتصادية

ظهرت فى النصف الأول من القرن التاسع عشــر اختراعات ميكانيكية سمحت للصحافة بان تنهض نهضة جديده .. ففى ٢٨ نوفمبر ١٨١٤ أدخل جون والتر الإبن فى جريده التيمز آلة بخارية من إختراع ألمانى يدعى « كوينج » ، زادت من سرعة العمل بحيث أصبحت تخرج

ألفا ومائة نسخة فى الساعة .. وانتشر هذا الاختراع فى أرجاء القارة وقد زار فردريك غليوم الثالث بهذه المناسبة إحدى الصحف اليومية التى كانت تصدر فى برلين .

وقد انزعج العمال من هذه الوسيلة التى باتت تهـددهم فى ارزاقهم وحاولوا مقاومة استخدامها .

وفى عام ١٨١٨ اخترع لوريلو حبر الطبـــاعة فى باريس وساهم إختراع السكك الحديدية والتلغراف الكهربائى وغيرها فى زيادة سرعة الأعلام وسهولته .. وقد استخدمت جريده « مورننج كرونيكل » هذا التقدم العلمى الأخير منذ عام ١٨٤٥ كما سمح استحداث الحفر على الخشب فى عام ١٨٣٠ بتقدم الصحافة المصورة ..

الفصل الخامس

بين عامى ١٨٤٨ و ١٨٧١ م.

الصحافة الفرنسية فى ظل الجمهورية الثانية والامبراطورية الثانية

أثناء حصار باريس والفترة التى أعقبت حرب السبعين

« كانت الصحافة فى رأى هنرى افنل هى التى شكلت الحكومة المؤقتة فى عام ١٨٤٨ . فكانت جريدتا (ناسيونال) و (ريفورم) بمثـــابة مهد الجمهورية الثانية . وكانت تقيم بهما لجنتان بشكل دائم فى الوقت الذى كانت فيه الثورة ما زالت تهدر فى شوارع باريس ، ومن حول مكاتب التحرير وقف رجال مغبرون بالتراب ملطخون بالدماء يتكئون على أسلحتهم . . هناك تألفت الحكومة فى ٢٤ فبراير ١٨٤٨ »

وكان من أول أعمالها بطبيعة الحال تحرير الصحافة والغاء ضريبة الدمغة على الصحف وصدر مرسوم ٦ مارس بالغـاء قانون ٩ سبتمبر ١٨٣٥ الذى كان معروفا بأنه « عدوان على حرية الصحافة » .

ونشر مرسوم جديد بعد عدة أيام فى ٢٢ مارس يعلن عدم اختصاص المحاكم الأهلية ـ اطلاقا بنظر قضايا التشهير أو السب أو الحملات الأخرى التى تأتى عن طريق الصحافة . وأخيرا قبل نهاية شهر مارس نفسه ولكى

يضمن وزير الداخلية لكل الآراء أكبر قسط ممكن من الحرية قبل حلول الانتخابات ، قرر إيقاف جميع التشريعات المتعلقة بالضمانات المالية الخاصة بالمطبوعات الدورية .

وتم الاعتراف عند مولد الجمهورية الثانيه برسالة الصحفي النبيلة في « نشر التعاليم الديمقراطية » . .

وأصبحت حرية الصحافة خلال أربعة أشهر لا حدود لها وأخذ سيل حقيقي من الصحف ينهمر في شوارع العاصمة . وبلغ عددها مائتي صحيفة سياسية وأربعمائة صحيفة أخرى لم تقتصر على السياسة وحدها . وأصبح كل من له شهرة ولو ضئيلة من أصحاب الأقلام في الآداب أو الفنون أو السياسة يلقى بنفسه في عالم الصحافة . . فكان بيير لورو وجورج ساند وباربيه يحررون « لافريه ريبوبليك » (الجمهورية الحقيقية) وكان راسبـاى يدافع في صحيفة « أمى دى ببيل » (صديق الشعب) عن الله والوطن وعن حرية الفكر الكاملة وعن حق التصويت العام . وفي صحيفة « لوربرزنتان دى ببيل » (ممثل الشعب) هاجم برودون في خيلاء واضحة كلا من الجمهوريين واليعاقبة والشيوعيين ورجال الدين والجيش ورجال القضاء وكان مثله الأعلى الفلسفي هو المذهب الفوضوي أي ترك المجتمع لتسيره القوى الكامنة فيه .

ودافعت صحيفة « ليرنوفـل » أي (العصر الجديد) لمحررها لاكورديير عن « مبادىء الحرية والمساواة والاخاء التي أتت بها

المسيحية إلى العالم ..»

وليس من الممكن أن نحصى جميع الصحف التى ظهرت فى ذلك الحين ولكننا لانستطيع أن نغفل ذكر صحيفة «ايفنمن» أى (الحدث) لفكتور هيجو التى كانت تدين له بشعارها « كراهية شديدة للفوضى وحب رقيق عميق للشعب » .. وقدساهم فى هذه الصحيفة بول موريس واوجوست فاكورى وكانت مدام هيجو توقع الرواية المسلسلة باسمها عندما كانت فتاة وهو (مارى فوشيه)وكانت ابنتها توقع تحت اسم اديل.

ويجدر بالذكر أن نشير إلى ظهور أول جريده بخمسة سنتيمات فى ذلك الحين وهى جريدة « ليبرتيه » أى (الحرية) وكان نجاحها بالطبع عظيما فقد كان عدد النسخ المبيعة منها يصل فى بعض الأحيان إلى مائة ألف نسخة يوميا ..

الواقع أن فترات الحرية الكاملة لايمكن أن تطول دون أن تتخللها اساءة استخدام من جانب الذين يتمتعون بها .. فلم تداوم على الدفاع عن الحكومة إلا صحيفة واحدة هى «لومونيتور » فى حين أن جميع الصحف الأخرى دأبت على نقدها نقدا خفيفا فى أول الأمر ثم زادت شدته بعد ذلك حتى أصبح شديد العنف ..

وتميزت أيام يونيو بأولى مظاهر رد الفعل على أنه ليس ثمة حاجة لأن نذكر أن الصحافة كانت مسئولة إلى حد كبير عن هذه الحوادث ولايمكن تدوين التاريخ دون ذكرها ..

هذا وقد حوصرت باريس فى ٢٤ يونيو . وأثناء المعركة التى دارت فى الشوارع صادر الجنرال كافانيـــاك إحدى عشرة صحيفة .. وهو الاجراء الذى وصفه لامنييه بأنه « عملية بتر بسيف أفريقى » . وألقى القبض على جـيراردان وبقى عشرة أيام فى السجن ثم أفرج عنه فى ٥ يوليو دون ابداء أى سبب للقبض عليه .

واعلنت فى ٩ و ١١ اغسطس مجموعة أوامر على غرار شبيهاتها التى صدرت فى مستهل القرن (بين عام ١٨١٩ و ١٨٢٢) ، تعـاقب على الحملات الموجهة ضد الجمعية العمومية أو ضد الهيئات الجمهورية أو ضد حرية العقيدة أو ضد الملـكية الخاصة أو ضد الأسرة وفى اليوم التـالى صدر قرار آخر يعيد مبدأ الضمان المالى للصحف وهو الذى لم يمض على الغائه إلا أقل من ستة أشهر .

وهاجم « لوى بلان » هذا الاجراء وقال عنه « إن الضمان المالى معناه الاحتكار وهو عبارة عن الغاء صحافة الفقراء .. » وقد اضطر عدد كبير من الصحف إلى الاختفاء وخاصة صحيفة « لوبوبل كونستيتوان » وودع لامنييه قراءه بالعبارات التالية :

« ان مانشاهده ليس بالتأكيد حكما جمهوريا ولاشىء يمت إلى الجمهورية بسبب .. بل هو العبودية ودمار الصحافة عن طريق التطبيق الوحشى للتشريعات الاستبدادية التى عادت إلى الوجود .. وبات علينا حتى نمارس حق التعبير فى الوقت الحاضر أن يـكون لدينـا ذهب بل

وكثير من الذهب .. ومادمنا لسنا أغنيـــاء فلنسكت . صمتا أيها الفقراء !!! » ..

وحكم على مدير الجريدة بالسجن ستة أشهر و بغرامة قدرها ثلاثة آلاف فرنك وبالحرمان من الحقوق المدنية لمدة ثلاث سنوات وألغيت خمس صحف أخرى بين ٢٢ و ٢٤ أغسطس .

ومع ذلك فان دستور ٤ نوفمبر ١٨٤٨ لم يكن يتضمن هذه الشدة من جانب الحكومة، إذ لم ينص على إعادة الرقابة وترك الكلمة للمحاكم في شأن المسائل الصحفية .

ثم انتخب لويس نابليون بونابرت رئيسا للجمهورية في ١٠ ديسمبر ١٨٤٨ واستبدل في الحال بالجمعية التأسيسية الجمهورية، الجمعية التشريعية (وهي تقل عن سابقتها في الصفة الجمهورية) . واتحد أنصار بونابرت مع أنصار بيت لويس فيليب مع أنصار البوربون ضد الجمهوريين وشنوا عليهم الحملات الصحفية .

وأجاب لدرو رولان وأصحابه على ذلك بالدعوة لحمل السلاح وبثورة ١٣ يونيو ١٨٤٩ بعد أن يئسوا من مطالبة البرلمان بتوجيه الاتهام لرئيس الجمهورية ووزرائه .. وحوصرت باريس وألغيت ست من الصحف الجمهورية القوية وعادت الحكومة إلى استخدام قانون يعيد إلى الأذهان بل يفوق في القسوة القـــانون المسمى بقانون « سبتمبر ١٨٣٥ » .

وهناك صحف ساهمت مساهمة فعالة فى تمهيــد السبيل لاعادة الامبراطورية .. وأخذت الصحف الموالية لصــاحب السمو رئيس الجمهورية (لويس نابليون بونابرت) تنشر فــكرة إطالة مدة انتخــابه إلى عشر سنوات. وشن «جرانييه دوكاسانياك» الذى كان يتلقى توجيهاته من قصــر الاليزيه (مقر رئاسة الجمهــورية) حملات فى جريدة « لوكونستيتسيونيل » ومنــازلات عنيفة ضد الصحف صاحبة الميول المغايرة لذلك الاتجاه ..

الامبراطورية :

تمخض انقلاب ٢ ديسمبر ١٨٥١ عما يمكن تسميتهم « بالضحــايا الأدبية » ومن بينهم فيــكتور هيجو ، وميشيليه ، وفاشيرو ، واميل ديشانل. وفى ٣١ ديسمبر صدر مرسوم ديكتاتورى باحالة قضايا الصحافة والقول على محاكم الجنح .. أما دستور ١٤ ينــاير ١٨٥٢ فلم يتحدث عن الصحافة وترك تنظيم شئونها للقانون .. ومنذ فــبراير ١٨٥٢ بدأ العمل بنظام ظل قائماً حتى عام ١٨٦٨ نص على اتخاذ الحيطة لكل شىء .. فمنع نشر ما يدور فى قاعات المحاكم أو أروقة البرلمان إلا فى حــدود المحاضر الرسمية .ومنع نشر تفاصيل القضايا الصحفية ومايدور بشأنها من مناقشات .وأعاد العمل بمبدأ الضمان المــالى وفرض ضريبة الدمغة على الصحف من جديد .. وأصبح لايكفى الحصول على التصريح لإصدار

الجريدة بل يجب الحصول على إذن خاص فى حالة تغيير رئيس التحرير أو عضو مجلس الادارة المنتدب أو مدير الجريدة. وابتدع « روبيه » إجراء جديدا هو أن يكون من حق إدارة النشر سحب رخصة الجريدة بعد توجيه انذارين اليها مما أدى برؤساء التحرير إلى أن يصبحوا رقباء على صحفهم ..

وقد كتب فيكتور هيجو فى ذلك يقول :

« لم يكشف الاستبداد ابدا عن مثل هذه القحة البالغة والوحشية الممعنة مثل ما كشف فى هذا النوع من الرقابة المانعة التى تسبق التعطيل وتنذر به والتى تعاقب الصحف قبل القضاء عليها .. »

ولم يصمد إلا عدد قليل من الصحف إلى جانب (مونيتورا ونيفرسل) وهى الجريدة الرسمية للحكومة وقد ساهم فى تحريرها عدد كبير من الكتاب نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، الكساندر دیماس ، وامبير ، وتيودور دوبانفيل واركان ـ شاتريان ، وفيدو ، وا كتاف فييه ، وتيوفيل جوتيه ، وميريميه ، وسانت بيف » ولم تكن « لوكونستيتسيونل » و « لوپابى » و « لاباترى » الا صحفا شبه رسمية ولكنها كانت تسبح بحمد الإمبراطورية ووزرائها . وكانت جريدة «لابريس» لمحررها اميل دوجيراردان (من صحف المعارضة) وقد تلقت قسطا وافرا من الانذارات .

ومن المسائل الغريبة التي تجدر الاشارة اليها ، النزاع الذي اثارته الجريدة الكنيسية (لونيفير) لمحررهـا لوى فييو (مع بعض رجال الاسقفية الفرنسية حول تعليم ما يتعارض من الدراسـات الكلاسيكية القديمة مع الآداب المسيحية ..

وفي هذه الحقبة أو في ٢ ابريل ١٨٥٤ على وجه التحديد ، أخرج هادو فليمسان جريدة « لوفيجارو » وجعل منهـا مرآة صادقة للحياة الباريسية المتجددة على الدوام ، عن طريق تكتيل المواهب الأدبية حولها مثل باربي دروفيللي ، وتيودورد وبانفيل ، وأورلين شـل ، وجول كلاريتية وهنرى روشفورد (في أيامه الأولى) .

وفي عام ١٨٦٣ ظهرت صحيفـة « لوبيتي جورنال » (الجريدة الصغيرة) ـ وهي جريدة شعبية بنصف سوه [١]، وقد لاقت نجاحا كبيرا حتى أن كمية المطبوع منها وصل إلى ٢٠٠,٠٠٠ نسخة . .

وخلال العامين والنصف عام التي دامت فيها وزارة البوليس تلقت الصحف واحـدا وتسعين انذارا وعطلت ثلاث منهـا . . وقد وجه « برسيني » وزير الداخلية اثنين وثلاثين انذارا في عام واحد .. وهدد خلفه « بلليو » سبعا وخمسين صحيفة . .

وتسببت محاولة اغتيـال لويس نابليون بونابرت عام ١٨٥٨ في

---

(١) سو ـ عملة فرنسية صغيرة القيمة . .

إيجاد حالة إرهاب دامت مدة قصيرة . وكانت حرب ايطاليا على النقيض سببا فى التفكير فى إقرار نظام أكثر تسامحا ولكن هـذا النظام الأخير بدوره لم يدم الا مدة قصيرة وأعلن العفو العام فى سنة ١٨٥٩ .

وتميز عام ١٨٦٠ على الرغم من كل ذلك بنوع من اليقظة فى الرأى العام . فعادت صحيفة « لوطان » إلى الظهور بعد فترة خمول دامت عدة سنوات وتولى إدارتها أدريان هبرار ثم تأسست جريدة « لافرانس » بوحى من الحكومة الامبراطورية ، وكانت مهمتها « الدفاع عن اصلاحات الحكومة بتبديد خوف الجازعين وبالحد من غلواء المغالين » . .

وإزدهرت الصحافة الفرنسية فى ذلك الحين إزدهارا كبيرا يفسره البعض تفسيرا لا يخلوا من غرابة إلى حد ما حينما يردون ذلك إلى ما كان ينبغى على الصحافة بذله من مجهود كبير فى سبيل الوصول إلى التعبير عن أفكار كانت تعتبر حينذاك أفكارا هدامة . .

وفى عام ١٨٦٣ جرت انتخابات نيابية . . وكان للصحافة تأثيرها الفعال على الناخبين الباريسيين وفازت قائمة المعارضة باكملها فى العاصمة الفرنسية .

ومنذ هـذه اللحظة أصبحت العلاقات بين الصحف والحكومة مائعة مترددة وأعلنت الحكومة فى بيان امبرطورى فى ١٩ يناير ١٨٦٧

عزمها على التنازل فى وقت قريب عن حقها فى حرية التصرف بالنسبة للشئون الصحفية وترك البت فى جميع القضايا الصحفية لمحاكم الجنح . .

وقدم مشروع القانون للهيئة التشريعية فى ١٣ مارس وقد احتفظ فيه بضرورة تقديم الأخطار قبل النشر كما احتفظ بالضمان المالى وبضريبة الدمغة . . ومع ذلك أبرزت المذكرة التفسيرية للقانون مسألة الغاء شرط الحصول على تصريح من الحكومة قبل النشر واعتبرت الغاء هذا القيد اصلاحا هاما . وأما الوزير روهيه فقد كان ضد هذه الإجراءات على خط مستقيم واعتبرها ممعنة فى الحرية ولم يكن فى استطاعته أن يفصح عن ذلك خلال جلسات اللجان ولكنه انتقم لنفسه بامطار الصحفيين بوابل من الأحكام . .

وابتدع فى ذلك الحين نظام «البلاغات الرسمية» التى يتحتم على الصحف نشرها لتصحيح الوقائع التى يزعم أنها محرفة وخاطئة . . وسرعان ما بدا هذا الإجراء ، عديم الجدوى فى نظر وزير الداخلية ولم تتم الموافقة على القانون الا بعد مضى عام على نشر البيان الامبراطورى . .

ولوحظ أنه لم يكن تحرريا كما كان يرتجى إذ كيف يمكن تجنب الوقوع فى مسئولية نشر الأخبار الخاطئة أو الكاذبة ؟ وكيف يمكن مناقشة خطاب أحد النواب دون تلخيصه ؟ وكيف يمكن عرض نتائج الجلسات البرلمانية دون وصف ما جرى فيها ؟ وكيف يمكن نقد

أخطاء الحكومة دون التعرض للاتهـــام بالحض على كراهيتها وازدرائها ؟ . .

وعلى الرغم من كل ذلك ينبغى الاعتراف بان هـذا النظام كان أكثر ملاءمة للصحافة من غيره إذ ظهرت فى باريس خـلال فترة تقل عن عام واحدمائةوأربعون صحيفة . ومن الحق أن نقول أيضا أن أربعة وستين حـكما صدرت ضدالصفحيين خـلال الأشهر السبعة التى أعقبت اعلان القانون .

والمهم أن النقد تنـاول النظام الأمبراطورى نفسه ولم ينقطع سيل مقاومة السياسة التى كان يجرى عليهـا وفى هـذا الوقت أخرج هنرى روشيفور صحيفة « لانترن » أى (المصباح) حيث أطلق لنفسه العنان فنجحت الصحيفة بسرعة نجاحا كبيرا ولـكن ذلك النجاح لم يحل دون القبض عليه بعد العدد الثالث ان لم يكن قد أدى إلى هـذا القبض . وعند ما حكم عليه فرالى بروكسل حيث واصل أصدار جريدته التى لم تتمكن الحـكومة من منعها من دخول فرنسا ورواجها فى القرى والمدن على السواء .

ونشر جول فيرى وجول فافر وأخرون جريدة للمعـارضة باسم « الـكتور » أى (الناخب) إلا انها طوردت منـذ عددها الأول ثم الغيت فى ١٨ مارس ١٨٦٩ وحلت محلها جريدة « الـكتورليبر » أى (الناخب الحر) حيث واصل فيرى حربا عوانا ضد الامبراطورية . .

ولم تقف تلك الجريدة وحـدها فى ميدان المعـارضة للامبراطورية بل زاملتها « لوريفى » أى (الصيحة) و « لورابل » أى (النـــداء) و « لا مرسييز » حيث كان يكتب دلسكلوز وفيكتور هيجو وروشفور الذى أصبح نائبــا وجول فاليه ، وبرودون ودوشين ولونجيـه . . وباتت كل هذه الصحف تعبر عن المعـارضة الشديدة وعلى الرغم من مطاردتها ومصادرة اعـدادها كانت تتسلل إلى جميع المنـازل وكانت توزع خلسة فى كل مكان . .

وفى يوم ٢ نوفـبر ١٨٦٨ وهو يوم زيارة المقابر قام الجمهوريون بمظاهرة على قبر بودان . وافتتحت كل من جريدة « افنيرناسيونال » أى (المستقبـــل القومى) لمحررها بيرا ، وجريدة « لوريفى » لمحـررها دلسكلوز و « ريفى بوليتيك » أى (المجلة السياسية) لمحررها سالوميل لاكوروبريسون ، اكتتابا لاقامة نصب تذكارى .. وكان فيكتور هيجو فى مقدمة المـكتتبين .. وقد صودرت هذه الصحف وقدمت للمحاكمة .. وقام بالدفاع عنها جامبتا « فكان هذا الدفاع بداية لشهرته التى طبقت الآفاق وقد صدرت أحكام ضد الصحف والصحفيين حتى فى الأقاليم هذا وقد ساهمت صحف المعـارضة مساهمة فعالة فى ترشيح أقلية محـدودة من النواب الناهضين لقوائم الترشيحات الرسمية فى الانتخابات النيابية لعام ١٨٦٩ .

وكانت مسألة فيـكتور نوار من المـآسى التى تناولتهـا الصحـافة

الفرنسية وقد بدأت بمقال عنيف فى مجلة « لاريفانش » أى (القصاص) لمحررها باستيا ضد، بونابرت الأول . فرد عليه الأمير بيير نابليون ابن لوسيان بعبارات جارحة فى مجلة « افنيردولا كورس » أى (مستقبل كورسيكا) . . وبعد تعقيب جريدة « المارسييز » طلب الأمير من روشيفور مبارزته . . وذلك فى نفس الوقت الذى كان باسكال جروسيه مراسل مجلة « لاريفانش » فى باريس قد أرسل بشاهديه ، الريك دوفونفي وفيكتور نوار إلى بيير نابليون لمبارزته .. لكن فيكتور نوار قتل فى صالون الأمير الذى برأته المحكمة العليا بعد محاكمته . . وفى اليوم التالى للجريمة (١١ يناير ١٨٧٠) ظهرت المارسييز مجللة بالسواد ونشرت كلاما لروشيفور يفيض نقمة على الحادث جاء فيه «لقد كنت مخدوعا حينما ظننت أن أحد أفراد أسرة بونابرت لا يمكن أن يكون إلا قاتلا » .

وقد صودرت الجريدة ولكن جنازة فيكتور نوار أوشكت أن تتحول إلى ثورة . وعاد روشيفور إلى السجن حيث بقى إلى أن سقطت الامبراطورية .

ومنذ هذه اللحظة أخذ عدد الصحف الجمهورية فى التزايد دون انقطاع سواء فى الأقاليم أو فى باريس .. وتوالت أوامر القبض والقتل والأحكام بالسجن ولكن حدة الحملات الصحفية كانت أيضا فى تزايد مستمر كلما زادت قسوة العدوان . .

ولما ضاق الخناق على الامبراطور عمد إلى تحويل الرأى العام وشغله بالاستفتاء الذى اجراه فى شهر مايو . ولكن هذه الوسيلة لم تجد فتيلا فى تعزيز مركزه الأدبى .

وزادت الحرب الأمور تعقيدا إذ ما كادت تعلن حتى استصدر اميل اوليفييه قانونا من البرلمان يحرم على الصحف نشر أى شىء يتعلق بالعمليات الحربية .

الصحافة أثناء حصار باريس

وخلال الفترة التى أعقبت حرب السبعين

كتب لوى فيو فى صحيفة « لونيفير » أى (العالم) فى يوم ٥ سبتمبر ١٨٧٠ مقالا بعنوان « هاهى ثورة الاحتقار ! » ثم سقطت الامبراطورية .

وقد أدى تغيير نظام الحكم داخل باريس المحاصرة بالجيوش الأجنبية إلى تحرير الصحافة من كل ضغط وإلى ظهور عدد كبير من الصحف الجديدة . . فاسس بلانكى «لاباترى آن دانجيه» أى (الوطن فى خطر) وأخذ منذ ١٥ سبتمبر يحاسب الحكومة على تقصيرها فى الدفاع عن الوطن . . وطالب فيلكس بيان فى صحيفة « لوكومبا » أى (المعركة) بقيام حكومة جماعية فى باريس ، وفى مقابل ذلك

قامت جريدة « لوجورنال ديديبا » أى (جريدة الجدل) المعتدلة المحافظة بالحد مما كانت تسميه بالتهريج السياسى وأخذت تدافع عن الحكومة ..

وعلى الرغم من حالة الحصار المضروبه تمتعت الصحافة الباريسية بقسط وافر من الحرية فصدر مرسوم ١٠ أكتوبر ١٨٧٠ بالغاء الضمان المالى بالنسبة للصحف السياسية .

وصدر مرسوم آخر فى ٢٧ اكتوبر ١٨٧٠ يعيد للمحلفين أمر البت فى القضايا الصحفية . .

ولم يكن فى مقدور الصحف الباريسية أثناء الحصار الا أن تعرض فى اقلال للأمور السياسية وتناولت مشاكل المعيشة والتموين والايجارات والاجراءات الصحية والمتغلين والجواسيس الذين يصلون إلى أدق أسرار العمليات الحربية وحوادث الحصار ونشر مراسيم حكومة الدفاع الوطنى وتصريحات جامبتا التى كانت تصل العاصمة تحت أجنحة الحمام الزاجل . . كل ذلك مصحوبا بتحذيرات ونصائح للمحافظة على صحة الجنود المكافحة ولمكافحة الحريق وتعليمات للرماية الخ . .

وأما فى الاقاليم فان الألمان كانوا يلقون القبض على الصحفيين .

وفى ٢٨ يناير ١٨٧١ دخل المحاصرون باريس فقرر واحد وأربعون من مديرى الصحف وهوعدد يكاد يقرب من الاجماع ، عدم

اظهار صحفهم مادام العدو فى المدينة .

وفى الأسابيع التى تلت ذلك اصبحت باريس مهجورة فقد جرت الانتخابات وانعقدت الجمعية الوطنية فى بوردو وحلت حكومة تيير فى ١٧ فبراير محل حكومة الدفاع الوطنى واستأثرت مفاوضات السلام بكل اهتمام رجال السياسة ونشاطهم ..

ثم تفاقمت الخلافات الاجتماعية وفى ١١ مارس اصدر الجنرال فينوى رئيس هيئة أركان حرب الجيش فى باريس مرسوما يعطل بجرة قلم صحف « لوفنجور » أى المنتقم — و « لوكرى دوبيل » أى صرخة الشعب — و « لوموت وردر » أى — الشعار — و « لوبيير دوشن أى الأب — دوشين — و « لكاريكاتير » و « لابوش دوفير » ..

وقد زادت حكومه الجمعية الوطنية تشريعات الأمبراطورية الثانية سوءا بتحريم إصدار صحيفة سياسية جديدة .. وكانت النتيجة وبالا إذ استولت اللجنة المركزية الشعبية فى ١٨ مارس على دار البلدية بمساعدة بعض الفرق المنضمة للحرس الوطنى ولكى يصبح لحركة العصيان هذه مبرر قانونى وسند مشروع أدعت رغبتها فى حماية حرية الصحافة ..

وكان أول عمل قامت به اللجنة المركزية بعد تشدقها بمعانى الحرية أن أوقفت جريدتى (لوفيجارو) و (لوجولوا) .. وفسرت عملها فى الجريدة الرسمية الصادرة فى ٢٠ مارس على النحو التالى :—

« ترغب السلطات الجمهورية فى العاصمة أن تحترم حرية الصحافة كما تحترم جميع الحريات الأخرى . . وهى تأمل فى أن تدرك جميع الصحف أن أول واجباتها هو احترام الجمهورية والعدالة والواجب وكلها أمانة فى عنق الجميع » .

ولكن الصحف المعتدلة والمحافظة لم تنثن أمام هذا العصيان الظافر فقد اتفقت ثمانية وعشرون منها يوم ٢١ مارس على حض الناخبين الذين كانوا سينتخبون اللجنة الجماعية لمدينة باريس على عدم التوجه لصناديق الانتخاب . .

وفى اليوم التالى نشرت اللجنة المركزية تحذيرا لهذه الصحف فى جريدة (اوفيسيل) الرسمية جاء فيه :

« تعلن اللجنة المركزية للحرس الوطنى من مقرها بدار البلدية أنها تحترم حرية الصحافة أى حقوق المواطنين فى مراقبة أعمالها ومناقشتها ونقدها .. ولكنها تحتم احترام قرارات ممثلى سيادة شعب باريس .. وستأخذ كل من يخالف ذلك بالشدة . »

وفى ٣ ابريل بدأ (ليساجراى) هجومه فى جريدة (اكسيون) ضد الصحف .

« أننا نطالب بايقاف جميع الصحف المعادية للحكم الجماعى (لا كومون) دون أدنى تردد فان باريس فى حالة حصار حقيقى .

ولاينبغى أن يكون لاذناب الألمان فى باريس مراكز يلتفون حولهـا وليس لاشياع فرساى أن يحصلوا على معلومات عن تحركاتنا الحربية»

وألغيت فى ٤ ابريل ثلاث صحف وآثرت سبع أخرى عدم الظهور من تلقاء نفسها وتقرر الغاء أربع أخرى يوم ١٨ ابريل .. وخرجت حكومة الـكومون على الشعب الفرنسى يوم ٢٠ ابريل باعلان زعمت فيه أن لها وحدها حق « مراقبة وضمان حرية وصحة ممـارسة حق الاجتماع والنشـر » ..

وزيادة على ذلك أعلن (امورو) فى جلسة ٢١ أبـــريل « أنه ينبغى ألا تبقى فى زمن الحرب إلا جريدة اوفيسيل وحدها » .

والواقع أن هذا لم يكن رأى الجميع فقد طلعت جريدة (لو بيان بيبليك) فى ٢٠ أيريل ١٨٧١ بمقال فى صدرها لهنرى فرينول استهله بنشر المذكرة الايضاحية التى نشرتهـا جـــريدة اوفيسيل والخاصة بتعطيل صحف (لوسوار أى المساء) و (لاكلوش أى النـاقوس) و (اوبنيون ناسيونال ـ أى الرأى العام القومى) و (لو بيان بيوبليك ـ أى الخير العام) وختمه بالعبارات التالية :

«لقد تجرأت حكومة لوكومون على القيام بما لم تجرؤ الامبراطورية على القيام به قط ، فقد أوقفت الصحف دون أن تتـكرم حتى بمجـرد انذارها قبل الايقاف .. ونود أن يعلم الجميع تقريرا لـكرامة الصحافة أنها ان كانت قد عانت ظلم الأقوياء فانهـــا لم تتقبله فى أى لحظة من

من اللحظات ولم تسكت اطلاقا عن الاحتجاج عليه .. »

وتتابع الغاء الصحف فى خطى سريعة .. وقد وقفت إلى جانب حكومة الكومون صحف (لوفينچور أى المنتقم) لمحررها فيلكس بيا ، و (لرمودوردر ــ أى الشعار)لمحررها روشفورو و (صرخة الشعب) لمحررها جول فاليس و(بير دوشن) لمحرريها فيرمش ومسكيم فيوم وهومبير ..

ثم غلبت حكومة الكومون على أمرهـا فى ٢٨ مايو إذ دأبت غالبية الصحف مثل (لوجولوا) و (لوفيجارو) و (لوبيان بيبليك) على الافاضة لقرائها فى وصف ماجرى فى باريس من مشاهد وماحل بها من إحداث ووقفت الصحف كلها على وجه التقريب فى صف الغزاة عدا بعض صحف الاقاليم مثل جريدة (لودروا دلوم) أى حقوق الانسان لمحررها جول جيد التى كانت تصدر فى مونبلييه (ولبا نسيباسيون أى البعث) الى كانت تصدر فى تولوز و (لوناسيونال) أى الوطنى) التى كانت تصدر فى لوريه .

واضحت عمليات القمع بالغة العنف: فنفى روشفور إلى جزيرة كاليدونى الجديدة [1] ولكنه هرب منها فى ١٨٧٤؛ واضطر فيلكس بايا إلى الالتجاء إلى لندن ومات ماروتو فى كاليدونى الجديدة واطلق الرصاص على جاستون كرمييه رئيس الكومون.

---

(١) جزيرة فى المحيط الهادى ..

الفصل السادس

الصحافة الحديثة

من ١٨٧١ إلى ١٩١٤ - تنظيم المهنة

ما أن وضعت الحرب أوزارهـا حتى اشتعلت فى الداخل معركة سياسية حامية الوطيس فقد اقرت الجمعية الوطنية فى الحال يومى ١٥ و٢٢ أبريل ١٨٧١ قانونا خاصا بالصحافة ويبدو أن المسألة كانت لا تحتمل اى تأخير وهذا ما اكده مقرر المجلس دوق بروجلى حين أعلن :

« أن القانون المقترح تقتضيه ضرورة عاجلة وتطالب الحكومة بأقراره كى تضع من الآن حداً لاستهتار الصحف المناهضة للكيان الاجتماعى فى البلاد والتى تعدت فى بعض المدن كل الحدود »

وكانت الحكومة تأمل أن يصدر المحلفون وكلهم من الطبقة المتوسطة على الصحف احكاما تردعها . ولكن البلاد احتفظت بهدوء أعصابها أمام هذا الاجراء ولم تندفع فى تيار الملكية واخيرا برئت ساحة الصحفيين الجمهوريين .

وبات من الضرورى البحث عن وسيلة أخرى فصدر قانون ٦ يوليو ١٨٧١ الذى يعيد الضمان المالى. وقد اقرته الجمعية الوطنية بأغلبية ٣١٤ صوتا ضد ١٩٠ صوتا . . وفى ٤ و١٦ سبتمبر من العام نفسه صدر قانون

جديد يفرض ضريبة خاصة على الورق . .

وكانت الصحافة الباريسية في الواقع قد اثارت قلق الحكومة من الدور الهام الذي قامت به في تنظيم المظاهرات الانتخابية التي جرت في ٣ يوليو . وكانت الصحف المحافظة والملكية قد تضامنت معا في « اتحاد الصحافة الباريسية » لكي تتقدم بقائمة موحدة من المرشحين وعلى الرغم من ذلك لم تنجح . . وبات الجمهوريون منذ ذلك الحين من الكثرة بحيث يرغمون منافسيهم على أن يحسبوا حسابهم . . وفي ذلك الوقت الف جامبتا الفريق البرلماني للاتحاد الجمهوري وتعبر عن سياسته جريدة « لا ريبوبليك فرانسيز اي الجمهورية الفرنسية » التي كان من بين من ساهموا في تحريرها سبلر وشالمل لاكور وشارل فلوكيه ووالديك روسو ، ورينيه ، وجاستون تسون . وأقر جامبتا مبدأ الحصول على الاصلاحات واحدة بعد أخرى دون التنازل في سبيل ذلك عن البرنامج الجمهوري الكلي للاصلاح الشامل . . وهذا ما اطلق عليه اسم « الانتهازية » . .

ومن اهم صحف هذه الفترة جريدة « القرن التاسع عشر » التي كانت توصف بانها « جمهورية محافظة » وقد بدات في الظهور عام ١٨٧١ وتولى « ادموند ابو » أدارتها في مايو ١٨٧٢ وعاونه فيها عمانويل ارين وبول لافارج وجول سيمون ودوما رسير وتيرار وفي المقدمة فرانسيك سارسي الذي تولى الحملة ضد رجال الكنيسة .

وظهر أول عدد من جريدة « ماتان أى الصباح » يوم ١٠ أبريل ١٨٧٢ . واعلنت أن اتجاهها جمهورى وأنها من انصار قيام جمهورية خالية من الاحتكارات والامتيازات ولخصت برنامجها على النحو التالى :

« لنحذو حذو الامريكيين فلا نهدف الا إلى غرض واحد هو « التقدم » .

وفى العام نفسه اعاد ادموند مانبيه أظهار صحيفة « ايفنمان أى الحدث » لتدافع كذلك عن المبدا الجمهورى . . وظهرت فى المعسكر المضاد عام ١٨٧٢ جريدة « لوسولى » أى الشمس وهى أول جريدة سياسية كبيرة تباع بخمسين سنتيما . . وقد دافع فيها أدوارد هرفى عن مصالح امراء اورليانز (١) . .

والواقع أن النظام الجديد لم يكن قد استقر استقرارا متينا . . ولهذا أعلن الرئيس تيير فى ١٣ نوفمبر ١٨٧٢ عن ضرورة ارساء النظام الجمهورى على قواعد ثابتة . . وهكذا أصبح هذا الرجل العدو الاول للمطالبين الشرعين بالعرش ولامراء أورليانز ولآل بونابرت . . وقد ائتلفوا جميعاً فى اتحاد مؤقت وتمكنوا عن طريق ذلك من قلب حكومة تيير فى ٢٤ مايو ١٨٧٣ .

---

(١) امراء أورليانز : كان منهم البيت المالك فى فرنسا وتولى لويس فيليب حكم فرنسا وسمى نفسه لويس فيليب الاول (١٧٧٣ — ١٨٥٠) وقد تبادلوا عرش فرنسا مع اصحاب الحق الشرعيين ومنهم شارل العاشر ومع سلالة بونابرت .

وهذه الوقائع كلها معروفة تمام المعرفة ولكن لا محيص عن ذكرها لبيان ما كان لها من أثر سيء على مصير الصحافة .. ونذكر كذلك انتخاب مارشال ماك ماهون رئيسا للجمهورية ثم تولى حكومة بروجلى السلطة ثم استدعاء كونت دوشامبور الذى أصر على استخدام علم الملكية الأبيض ثم مد مدة انتخاب ماك ماهون سبع سنوات . وقد كان لتعاقب كل هذه الأحداث أثر طيب فى إمداد الصحف بالأخبار ولكن الصحف عانت من ذلك الأمرين . ففى مدى ستة أشهر صدرت ضدها خمسة أحكام بالايقاف وأربعة عشر بمصادرة البيع .. وتذرعت السلطة لكى تطارد ماك ماهون باتهامه بالاشتراك فى حكومة الكومون والواقع أنها كانت تخفى وراء ذلك تهمته الحقيقية لديها وهى عمله الصحفى مما ادى به إلى الهرب إلى بلجيكا حيث استمر فى التعاون مع جريدة « لاريبوبليك فرانسيز » وصدر ضده حكم غيابى بالاعدام .

ووقعت الحكومة فى ذلك الحين كما كانت الحال بالنسبة للحكومات العديدة التى تلتها بين نارين (بل قل أنها كانت تحاط بالنيران من عدة جهات) : فمن جهة كان يقف لها بالمرصاد الجمهوريون الذين كانوا يتطلعون إلى حرية أوسع ومن جهة أخرى عاداها كل اولئك الذين كانوا يرغبون فى عودة نظام معين من النظم السابقة .. وقد عبرت الصحافة عن هذه الميول جميعا .

وكان المطالبون الشرعيون بالعرش وكذلك آل بونابرت يعارضون

اطالة مدة انتخاب رئيس الجمهورية وجعلها سبع سنوات وكانوا يرون فى ذلك تسويفا طويلا وربما قضاء مبرما على آمالهم فى الوصول إلى الحكم. وكانت الصحف الناطقة بلسانهم تعبر عن ذلك فى شدة ومرارة . واعلنت جريدة (اونيون أى الوحدة) وهى جريدة ملكية أن نظام السبع سنوات «ضلالة » واكدت صحيفة « ليبرتيه أى الحرية » ذات الميول الامبراطورية أن « مبدأ عدم عزل المارشال (رئيس الجمهورية) معناه تنازل الجمعية الوطنية عن سلطاتها » .

ثم أخذت هذه النغمة تزداد رويدا مما أدى بوزير العدل إلى أن يوجه فى ١٤ ابريل سنة ١٨٧٤ منشورا لوكلاء النيابة يطالبهم فيه بأن يرفعوا اليه المقالات التي تتضمن هجوما على النظام القائم .

ونشرت جريدة فيجارو مقالا حثت فيه المارشال على قلب نظام الحكم للخروج من الحالة التى كانت تراها غير قانونية مما أدى بالنائب كريستوفل من أحزاب الوسط اليسارى إلى تقديم استجواب فى هذا الشأن . وعلى أثر المنازلات العنيفة وصلت الحال شيئا فشيئا بصحف مختلف الأحزاب إلى تبادل التهديد بالحل والتحريم .

وأخيراً تأسست الجمهورية بشكل نهائى فى ٢٧ فبراير ١٨٧٥ وتطلعت الصحافة الجمهورية إلى مصير أحسن .. وباتت تستعرض الازمات التى واجهتها والصعوبات التى مرت بها خلال هذه السنوات الأخيرة . وكان قد صدر ضدها خلال الستة والعشرين شهرا التى تولى

فيها تيير الحكومة ٥٢ حكما إداريا .

وكانت الجمعية التشريعية قبل زوالها قد أعدت بالاشتراك مع كل من وزير العدل ونائب رئيس الوزراء قانونا (٢٩ ديسمبر ١٨٧٥) يوكل إلى المحلفين النظر فى الجرائم السياسية ويعهد إلى المحاكم العادية بكل ما عدا ذلك من مسائل .

وظهرت جريدة « لويتى باريزيان » فى ١٥ أكتوبر ١٨٧٦ وتولى رئاسة تحريرها جول روش. وكان روشفور قدعاد من منفاه واعاد اظهار «لانترن أى المصباح» بالاشتراك مع هنرى ماريه . وفى العدد الأول منها ذكر مصير معاونيه القدامى فى جريدة « المارسييز » عام ١٨٦٩ فاحصى خمسة ماتوا واثنين حكم عليهما بالاعدام وثمانية نفوا وعقب على ذلك بقوله « تلك هى الجوائز التى منحتها الجمهورية لاولئك الذين بذلوا قصارى جهدهم فى العمل على ايجادها بعد أن افنوا أنفسهم فى صراع رهيب مع الامبراطورية . »

ثم بعثت من جديد بعض المشاكل الدينية التى كانت كما هو معروف سببا فى اثارة بعض الحوادث . فقد قام رجال الكنيسة الفرنسية قومة رجل واحد يطالبون البرلمان بإعادة السلطة الزمنية للبابا . مما أدى إلى حوادث ١٦ مايو ونعنى بها اقالة المارشال لوزارة جول سيمون وتوجيه الدعوة للامة لاجراء انتخابات جديدة . ومن نافلة القول أن نذكر ان هذا الاجراء سبب هياجا شديدا .

وقد وقفت الصحافة الجمهورية كلهـا صفا واحـدا أمام ابطال ١٦ مايو وهم دوبروجلى وفورتو ودوكاز ورفقـائهم .. وقد ذكر هنرى افنل عن الفترة بين ١٦ مايو و ٤ اكتوبر أنها كانت « أهم فترة فى حياة أميل دوجيراردن » ثم امتدح حيويته وإنتاجه وقوته ومرونته وكفاءته وقدرته واخلاصه للنظم الجـديدة . . وقد دخـل المجلس فى صفوف الاتحاد الجمهورى الى جانب جامبتا .

وشغلت البـلاد خلال هـذه الأشهر الخمسة بمعركة عنيفـة بين الحـكومة والمعارضة الجمهورية كانت الصحافه إحدى أسلحتها الرهيبة .

وظنت الحـكومه أنه من الحـكمة ان يترك أكبر قسط ممكن من الحرية لباريس ولـكنها زادت فى أعمال الضغط والارهاب فى الاقاليم .. هذا وكان تيير قد قصر معاونته على جريدة « ديبـا » ممـا اذاع صيتها وضمن لها النجاح . وعاجلته المنية بينما كان يعـد بيانا دافع فيه دفاعا بليغا عن الجمهورية والحزب الجمهورى . وقد نشرت جريده « ديبا » هذه الوثيقة التى أحـدثت دويا هائلا باعتبارها شهادة من أحد رجال الدولة المخضرمين . .

وكان أدمون ابو يقود الحمـلة فى جريدة « القرن التاسع عشر » فى عبارات لاذعة وفى تهكم يذكرنا باسلوب فولتير وبول لوى كوريبه .

وتجنبت جميع الصحف الجمهورية ومنهـا « لورابل أى النداء » و « لاربيبليك فرانسيز ـ أى الجمهورية الفرنسية » و «لوطان ـ أى

الزمان » موضوعات الخلاف فيما بينها وعملت كلها على اعادة انتخاب الثلاثمـائة وثلاثة وستين نائبـا الذين ابوا أن يمنحوا ثقتهم لحـكومة بروجلى . .

أما صحـافة أحزاب اليمين فـكانت على العـكس من ذلك منقسمة على نفسها وباتت الصحف الملـكية والبونابرتية والاورليانزية تتقاذف الشتائم . .

وكانت الحـكومة قد حرمت بيع أو توزيع الصحف الجمهورية فى جميع أنحاء البلاد تقريبا ولذلك التجأت الصحف بعد أن أغلقت فى وجهها السبل العامة إلى أصحاب الحوانيت الصغيرة الذين اتخذوا لأنفسهم صفة الوراقين . وتزايدت القضايا ضد الصحف وبلغت خمسا وثمانين قضية أقيمت ست منهـا فقط فى باريس . . ونذكر من بين هـذه الأخيرة القضية التى رفعت على جريدة « لاريبيليك فرانسيز » وجامبتا بشأن الخطاب المدوى الذى القاه فى مدينة ليل يوم ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٧ ودعا فيه إلى مناقشة الحـكومة الحساب عن مشروعاتها وعن مسئوليتها فى حالة الاضطراب التى اشاعتها فى البلاد و« حينما يتاح للبلاد أن تقول كلمتها العليـا فينبغى أن تسمع وتطاع أو فليغرب من ليس له رغبـــة فى الانصياع » . . ولم تنفذ على الاطلاق الأحـكام التى صدرت بالسجن بثلاثة أشهر وبغرامة ثلاثة آلاف فرنك لأن الإجراءات القضائيه لم تكن قد انتهت حينما تغير النظام كله .

وانتصر الحزب الجمهورى فى الانتخابات النيابية فى ١٤ اكتوبر ويرجع الفضل الاكبر فى ذلك إلى الصحافة وقد اضطر ماك ماهون إلى الرضوخ للامر الواقع . وأمر بتشكيل وزاره يسارية برياسة ديفور والتزم فى الخطاب الذى القاه فى ١٤ ديسمبر باحترام الأصول البرلمانية فى تصريف الأمور. ثم وافق مجلسا البرلمان: النواب والشيوخ على عدة قوانين تهدف إلى الحيلولة دون تكرر ماحدث فى ١٦ مايو من جديد وعلى قانون يزيد فى حرية نقل الصحف وعرضها للبيع وعلى اصدار عفو عام عن كل الجرائم التى ارتكبت عن طريق القول أو الصحافة أو بأى وسيلة أخرى من وسائل النشر .

وبدأ عهد جديد؛ وأيقن ماك ماهون أن الرضوخ للامر الواقع لايكفى؛ فقدم استقالته وحل محله جول كريفى فى ٣٠ يناير ١٨٧٩ .

وظل العمل يجرى زهاء ثلاث سنوات لأعادة النظر فى جميع التشريعات المتعلقة بالصحافة حتى خرجت المجموعة الخاصة بها فى ٢٩ يوليو ١٨٨١ وظل العمل جاريا بمقتضاها حتى القرن العشرين. الأمر الذى يظهر أهميتها وتقدمها على القوانين السابقة التى كانت الحكومات المتعاقبة لاتفتأ تعدل فيها طبقا لمقتضيات الظروف ..

وتتضمن التشريعات المشار اليها حرية الطباعة وحرية المكتبات على أن يخرج كل منشور تحت مسئولية متعهد يلتزم بذكر أسمه وعنوانه وكذلك أسم وعنوان صاحب المطبعة وعنوان المنشور على أن يبلغ

الجهات المسئولة. كما تتضمن هذه التشريعات حرية نقل وتوزيع المطبوعات وتحدد حق الرد على المعلومات المنشورة أو تصحيحها .. وتعاقب فقط على جرائم الحث على القتل أو السلب أو إحدى الجرائم المنصوص عليها ضد أمن الدولة وسلامتها ، وعلى التشهير أو السب أو إهانة رئيس الجمهورية أو رؤساء الدول الأجنبية أو ممثليهم ..

وكان فلوكيه قد اقترح تطبيق القانون العام على الصحافة ولكن لوحظ انه سيصبح اعنف بكثير من هذا النظام الخاص فقد استبعد القانون الجديد جميع جرائم الفكر مثل مهاجمة الدستور وسيادة الشعب والإستفتاء العام وحرية العقائد والملكية والاسره والحكومة كما استبعد الجرائم الخاصة بالعرض فى أماكن عامة وبيع الشارات والرموز التى تتضمن اغراء والإساءة إلى التقاليد العامة أو الدين ..

واستمرت مناقشة هذا التشريع حامية لمدة طويلة والواقع أنه فى عالم الصحافة وعلى حد تعبير روييه كولار « ليس ثمة مخرج قانونى على الاطلاق يميز بين هذين التعبيرين : القصاص والأستبداد » وقد اختارت الحكومة الجمهورية طريق القصاص .

ثم وقع حادث جديد لفت الانتباه إلى النتائج التى تترتب على مثل هذا التشريع المتسامح . فقد مات جامبتا فى ٣١ ديسمبر ١٨٨٢ والصقت على الحوائط بعد ذلك بخمسة عشر يوما فى ١٦ يناير ١٨٨٣ منشورات يمكن أن نتخيل ماورد فيها . فقد كانت بتوقيع جيروم نابليون والقت

الحكومة القبض على الأمير صاحب المنشور ولكن قانون الصحافة لم يكن ينص على أي عقوبة في مثل هذه الأحوال . فأفرج عنه في الحال وقضى برفض الدعوى .

وقدم على الأثر مشروع قانون مكمل للنقص الذى رآه الوزراء في القانون ولكن المشروع رفض وباتت الحرية غير مشوبة .

ولكن تصرفات انصار بولانجيه (١) سرعان ماجعلت الشك يتسرب إلى النفوس فان الحرية اضحت مهددة من جديد .. وقد وصف ادريان دانست (٢) هذا الجو في كتابة عن انصار بولانجيه أو مذهب بولانجيه قال « في عام ١٨٨٦ كان حوالى مائة ألف قارىء يقرأون روشفور كل صباح في جريدة « لانترانسيجان » ومثلهم يقرأون جريدة لانترن (المصباح) المناهضة لرجال الكنيسة وكلهم من الصناع أو من الطبقة

---

(١) بولانجيه (جورج) : جنرال فرنسي ولد في رين(١٨٣٧ — ١٨٩١) تولى وزارة الحرب الفرنسية عام ١٨٨٦ وهو ينتمي للحزب القومي ومن الوطنيين المتطرفين وقد خلق حركة قوية فالتف حوله عدد من المتعصبين من الصناع وصغار الطبقة المتوسطة وباتت هذه الحركة تهدد بأحداث انقلاب عسكرى (فاشيستى) ولكن بولانجيه هدد بالقاء القبض عليه ففر إلى بروكسل حيث انتحر .

(٢) ادريان دانست : كاتب تحدث عن مذهب بولانجيه(١٨٨٦ـ١٨٩٠)

الوسطى الصغيرة وكانت النشوة تغمرهم حينما يطلعون على أن وزير الحرب جنديا من أنصار الجمورية ومواطنا صادق الوطنية .

« فى عام ١٨٨٨ اجتمعت لجنة المعارضة القومية من مديرى الصحف فمثل روشفور جريدة انترانسيجان ومثل يوجين ماير جريدة لانترن ومثل بورتاليس جريدة القرن التاسع عشر ، ومثل لالو جريدة لافرانس . . ولا يمكننا أن نتصور على وجه التحديد فى الوقت الحاضر مدى تاثير كبار الصحفيين فى ذلك الوقت فى الحياة السياسية للبلاد . »

وكان روشفور كلما تمادى فى تعصبه ارتفعت مبيعات جريدة انترانسيجان حتى بلغت ٢٠٠،٠٠٠ نسخة . وفى أوائل يونيو تولى لاجير إدارة جريدة « لا بريس » التى أصبحت بطريقة ما لسان حال حركة بولانجيه وكانت تطبع ١٥٠،٠٠٠ نسخة .

وشغلت صحف الفريقين (القوميين المتعصبين والمناهضين لهم) بمعركة حامية الوطيس وصلت اثارها إلى الشواع حيث كانت المناداة على الصحف أو بيعها يثير شغبا وفضائح عديدة .

وكان عدد الصحف اليومية قد زاد منذ عام ١٨٨١ زيادة ضخمة وكثير من الصحف التى كنا نقراها فى أوائل هذا القرن نشأت حوالى تلك الحقبة ومنها جريدة « ايكودو بارى أى صوت باريس » وجريدة « اوتوريتيه أى النفوذ » وجريدة « كوكارد أى الدليل » وجريدة

« لـكلير أى البرق » وجـريدة « لوجورنال » أى « الجـريدة » وجريده « ليبر بارول » أى الكلمة الحرة .

وأظهرت صحف الاقاليم بدورها نشاطا كـبيرا واضطلعت بدور مهم فى الصراع ضد تيار بولانجيه ..

وأعقبت هزيمة حزب الجنرال بولانجية وتصـدع ائتلاف الأحزاب المناهضة للجمهورية بلبلة ضخمة فى الصحافة البونابرتيه أو الملـكية . . وكان عدد ضئيل جدا من الصحف التى تسمى بالمحافظة تعلن صراحة إنها امبراطورية النزعة ومن ثم طالبت باستفتاء الشعب. أما عن كونت دوبارى فقد أيقن إن الحاجة باتت تقتضى تخفيض المعونة التى يمد بها الصحف المـلكية ونفذ ذلك إبتداء من أول يناير ١٨٩٤ .

وعلى العكس من ذلك إزدهرت الصحف الاشتراكية ومن خلال هذا الاتجاه اليسارى أخذ المتطرفون يلقون بأفكارهم كما انهم كانوا يلجئون إلى العمل بشكل مباشر عند الإقتضاء . فقد لوحظ إزدهار بعض الصحف التى تدين بالمذهب الفوضوى فى مدينة ليون بصفة خاصة إبتداء من عام ١٨٨٠ ثم أخذ بعد ذلك كل من كروبوتكين والزيه ركلووجان جراف فى شرح مذهبهم فى جريدة « لوريفولتيه أى المارق » . . وسرعان ما بدت نتائج هذا الاتجاه إذا إرتكب المتطرفون جرائم أخذت تتوالى وتشتد عنفا بوحى من بعض الصحف المطبوعة فى لنـدن والتى كانت توزع سرا فى فرنسا مثـل جريدة « انـترناسيونال أى الدولية » ثم

جريدة « انديكاتير أنارشيست أى المرشدالفوضوى» .

وفى مايو ١٨٩٢ تقدمت حكومة أميل لوبيه بشروع قانون يتضمن القبض على مؤلفى الكتابات التى تعتبر حضا مباشرا على ارتكاب الجرائم ومصادرة مثل هذه المطبوعات ولكن مناقشة المشروع ضاعت بين الإستشهاد بالنصوص الدينية والإغراق فى البحوث الفقهية . .

ولكن وقعت حادثة بصرت النواب بالأمر الواقع ونعنى بها القنبلة التى القاها « فايان » على البرلمان فى ٩ ديسمبر ١٨٩٣ .وإنتهزت حكومة كازيمير - بريبه فرصة إنفعال الرأى العام لتنال الموافقة بعد ثلاثة أيام من وقوع الحادث على قانون شبيه إلى حد بعيد بما ورد فى مشروع لوبيه،مع زيادة عدد الجرائم التى تدخل تحت طائلة القانون وتشديد فى العقوبة على مرتكبيها . .

وبعد مضى ستة أشهر أوفى ٢٤ يونيه ١٨٩٤ على وجه التحديد اغتيل سادى كارنو رئيس الجمهورية الفرنسية فى مدينة ليون .فوافق البرلمان على قانون ٢٨ يوليو دون أدنى تأخير ويهدف إلى حظر الدعاية للمذهب الفوضوى بطرق النشر المنصوص عليها فى المادة ٢٣ من قانون عام ١٨٨١ وبذلك بات القانون الجديد جزءا من التشريعات الصحفية المعمول بها منذ أكثر من عشر سنوات .

ومهما يكن من أمر فقد عاد الهدوء بعض الوقت إلى أن أثيرت قضية دريفوس . .

قضية دريفوس :

فى ٢٢ ديسمبر ١٨٩٤ حكم على الكابتن دريفوس بتجريده من رتبة العسكرية وبالسجن مدى الحياة فى قلعة عسكرية . وبانت القضية تشغل الصفحات الأولى من الجرائد وعناوينها الضخمة دون أن تثير مناقشات بين الصحف فى أول الأمر أو تستدعى قيام الجدل والنزال بينها حتى مضت ثلاث سنوات ثم هبت العاصفة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٧ عندما وجه أخ المحكوم عليه الاتهام الى استر هازى .

وفى ١٣ يناير ١٨٩٨ تردد الصدى العنيف للقنبلة الصحفية التى القاها اميل زولا حينما نشر مقالة الشهير تحت عنوان « انى اتهم » فى جريدة « اورور» التى اسسها فى ١٩ اكتوبر ١٨٩٧ ارنست فوجان بالاشتراك مع جورج كليمنصو واوربان جوهيه وفرنسيس دو بريسنسيه .

وسرعان ما انقسمت الصحف إلى معسكرين متعاونيين من جديد ففى جانب وقفت مع جريدة اورور الصحف التى دافعت عن براءة المحكوم عليه وهى صحف «لوسيكل أى الجيل» «وبيتيت ريبوليك» أى « الجمهورية الصغيرة » وهى جريدة اشتراكية و « فيجارو » و « ماتان أى الصباح » وغيرها وفى الجانب الآخر وقفت الصحف المسماة بالمناهضة لدريفوس والتى كانت تدافع عن وجهة نظر القيادة العامة وتذهب إلى تأكيد إدانة دريفوس وإلى القول بأنه لا مبرر للعودة إلى قضية صدر الحكم فيها وأن من الخطر على كل حال تعريض الأمة لفقدان ثقتها

فى قادة جيشها فى سبيل انقاذ مصير فرد واحد .. وكانت الصحف التى تدين بهـــذا الرأى هى « ليكلير أى البرق » و « ليبر بارول أى الكلمة الحرة » وهى جريدة مناهضة لليهودية وكان يصدرها ادوارد درومون وجـريدة « اكودى بارى ، أى صوت باريس » وجريدة « كوكارد أى الدليـل » وجريدة « انترنسيجان » .. وهكذا عادت فرنسا إلى الانقسام من جديد إلى معسكرين يتحفز كل منهما للاخـر وكانا يفرغان ما لديهما من حجج فى محصول وفير تخـرج به الصحف على الناس كل صباح .

وكان القرن التاسع عشرقد أوشك على النهاية وبدت تباشير القرن الجديد أو القرن الجميل كما كان يحلو للمخضرمين أن يسموه وكانت الصحافة مزدهرة ، وذلك أن سعرها المتواضع كان يجتذب العـديد من القـــراء .

وكان العامل المميز فى الصحف حتى نهاية القرن التـاسع عشر هو شخصية المحررين ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أسماء :

كليمنصو وروشفور (الثورى الذى تحول إلى اليمين) وبول دى كازانياك ودرومون ومن اليهم .

أما لوفيجـــارو تلك الصحيفة الباريسية الأدبية الاجتماعية فكان يديرها فيلليمسان وكانت مرغوبة لـــا تنشره من مقالات افتتاحية بقلم فرانسيس مانيـار . وكان آرثر ميير محـرر جريدة « جولوا »

الملكية للطبقة الارستقراطية . وكانت صحيفة « جيل بلاس » تمتاز بأدب غزل فى حين أن « جورنال دى ديبا » كانت تستخدم الأدب الأكاديمى الدسم. وكان ادريان هبرار الكاتب الساخر المتشكك ينشر فى « لوطان » التى تمتاز بمصادرها الوثيقة بعض الأسماء التى تمثل الصحافة فى نهاية القرن التاسع عشر .

ولكن كان هناك إلى جانب مقالات هؤلاء الكتاب الكبار عامل جديد غير من الصحف تغييرا كاملا . وكان ادوارد لوكروى قد ادرك هذا العامل الجديد منذ عدة سنوات حين نوه عنه فى المقدمة التى كتبها لمجلة « انيوير دولابريس أى حوليات الصحافة » عام ١٨٨٩ حيث قال : « أن الأعلام أو الخبر الدقيق أو غير الدقيق بات يحتل مركزا متزايد الأهمية بين أعمدة الصحف ؛ كما أن أسلوب البرقيات أخذ أيضاً يحل محل أسلوب الأدباء . اننا نتتبع السبل الأمريكية يوما بعد يوم وتسير الصحافة فى طريق تغير شامل فالقراء على وجه الخصوص يرغبون فى الأيجاز قبل كل شىء . . واصبحوا يعزفون عن عرض المذاهب والمبادىء ! .. وأصبح جمهور القراء متعطشا لقراءة الفضائح أكثر من أى وقت مضى .. » ويبالغ لوكروى فى ذكر مساوىء هذا « التغيير الشامل » وان كان محقا فى ملاحظة حدوثه .

• والواقع أن الصحافة قد افادت عند نهاية القرن التاسع عشر وفى بداية القرن العشرين من حالة الاستقرار السياسى النسبى والرخاء

الاقتصادى مما سمح بتطور فى التحرير وفى الأساليب الفنية والتجارية على نحو لم تدركه من قبل .

وعلى أثر الازمتين الكبيرتين الاخيرتين اللتين مرت بهما فرنسا واعنى بهما حركة بولانجية وقضية دريفوس فاقت الصحف الأخبارية الصحف السياسية الخالصة التى أخذ توزيعها يقل وينحصر فى دائرة محدودة . . واستهدفت الصحف الكبرى كسب جمهور متزايد على الدوام وايقن أصحابها بسرعة أنه لا بد لادراك هذا الهدف من أرضاء جميع الأذواق على الدوام وعدم أغضاب احد باتخاذ موقف صريح حول المسائل السياسية الشائكة والعمل على تزويد القراء بأكبر عدد من الأنباء المستفيضة السريعة .

ومن أجل إدراك هذا الهدف بلغ التنظيم الفنى درجة يحسن أن توضح اهميتها للقراء الذين قد لايقدرون أثناء تقليب الجريدة بين ايديهم كل صباح مدى الجهود التى بذلت فى اخراجها . .

التحرير :

كانت كل صحيفة من الصحف الاربع أو الخمس الرئيسية تستخدم حوالى مائة محرر عدا مندوبى الاقاليم والمراسلين فى العواصم الأجنبية الذين يوافون الصحيفة يوميا بالانباء . . وكان يمثل الصحيفة الأخبارية فى كل مكان محررون معتمدون فى مقر رياسة الجمهورية وفى كل وزارة وفى مجلس النواب والشيوخ وفى دار القضاء العالى سواء فى قاعات

المحاكم أوفى مكاتب قضاة التحقيقات وفى كل مركز بوليس وفى المسارح والنوادى الرياضية الخ . . وفضلا عن ذلك كانت توجد تحت أمرة كبير المندوبين مجموعـة منهم على استعداد دائما للتوجه إلى أى مكان لإجراء التحقيقات الصحفية عن كل شـاردة وواردة تحـدث دون سابق إنذار . .

ولم يكن للمندوبين الذين يخرجون لإجراء التحقيقـات الصحفيـة بمصاحبة المصور من غرض سوى احراز السبق على زملائهم من مندوبى الصحف المنافسة أو كما يقـال بلغة المهنـة « حرقهم » أى الوصول إلى تفاصيل تجعل رواية الآخرين تافهة . .

هذا وقد تعود أحد المخبرين الممتازين أن يردد القول بأن « المخبر ينبغى أو يكون واسع الأفق وانى اعزو إلى هـذا الانساع فى الافق الفضـل الكبير فى أنى أفرض نفسى على السكرتريين كما أفرض نفسى على رؤسائهم . . والواقع أن الشخص الضعيف لايخيف مخلوقا ويتوارى خلف الكواليس [1] » ولقد كانت مهمة هؤلاء الصحفيين ضربا من الرياضة بما فيها من مخاطرات وملذات .

وحينما يتم جمع الانباء ينبغى تسليمها أو إبلاغها على الفور بأقصى سرعة ممكنة . ولذلك تستخدم أحدث الوسائل كالخطوط التليفونية

---

(١) الصحافة فى عشرين درسا : بوبير دو جوفنل .

أو التلغرافية المباشرة الخاصة وما إلى ذلك من اجهزة خاصة مركبة بدور الصحف للخدمة الليلية يتولاها موظف من مصلحة التليفونات والتلغرافات ليتلقى البرقيات ويرسلها دون أدنى تأخير وكانت النتيجة أن مكاتب باريس كانت تعلم مايجرى فى لندن وبرلين وفينا ونيويورك فى نفس الوقت الذى يلم به سكان هذه العواصم بالأنباء ، بل وربما كانت الأنباء تصل باريس قبل ذلك ..

وكان رجال الصحافة يتابعون الجلسات البرلمانية فى باريس كما كانوا يوالون القضايا الهامة فى المحاكم وينقلون انباءها كل ربع ساعة أو فى فترات تقل عن ذلك إذا اقتضت الضرورة ..

وبمجرد تلقى الأنباء ترسل للمراجعة والإيجاز اذا اقتضت الحال أو لأعادة صياغتها عند الاقتضاء أو لأعطائها اسلوبا أدبياً إذا لزم الأمر أو غير ذلك من الأمور التى لاتسمح زحمة العمل للمندوب أن يوفرها ..

ثم ترسل كل هذه المواد إلى سكرتير التحرير .. وهو الشخص « الفنى » فى الجريدة .. فيجمع تحت اشراف رئيس التحرير مختلف المواد التى يقدمها المحررون والمراسلون ويختار لها مايناسبها من حروف الطباعة والعناوين ومواضعها من الصفحات .. وهو من أجل ذلك يعمل فيها بمنتهى الحرية مقصه أو قلمه الأحمر بالحذف أو الإضافة وذلك لايعنى أن سكرتير التحرير أنسان غليظ القلب بل الواقع أن عليه تقع

مهمة شاقة هى اخراج تلك المادة المتعددة الألوان داخل أطار الجريدة على نحو يسر القارىء ويجذب نظره ..

« فعمل سكرتير التحرير يتطلب اذن الكثير من الخبرة الفنية وقوة الارادة والحزم كما يتطلب إلى جانب كل ذلك أيضا صحة قوية إذ أن السهر الطويل بجوار المطبعة لمراقبة خروج جريدة الغد فى ثوبها الأخير يتطلب حماسا كافيا وتوقدا ذهنيا وقدرة صحية » [1] وسكرتير التحرير هو حلقة الوصل بين العمل الذهنى فى الجريدة والتنفيذ الآلى لأخراجها .. وسنرى مدى الكمال الذى بلغه هذا التنفيذ ..

الشروط الواجب توافرها فى الصحفى :

أن لدى الجمهور ونعنى جمهور قراء الصحف فكرة غريبة إلى حد ما عن الصحفى وعن الروح التى يعمل بها . ولن نعرض هنا لتفصيل هذه الآراء المتحاملة وان كان من الممكن تلخيصها فى كلمتين هما أنه « غير جاد » . والأمر على النقيض من ذلك فالصحفيون على جانب كبير من الادراك الصحيح لمهنتهم . .

وحتى لو كانوا لا يعشقون مهنتهم فكيف يمكن أن ينسوا أنهم يعملون تحت رقابة آلاف القراء وفى منافسة دائمة مع جميع زملائهم ؟ .. كل هذا يضطرهم أن ينحوا على الدوام نحوا بالغ الدقة بعيدا عن التحيز .

---

(١) مدرسة الصحافة العملية .. المهن الصحفية ٣٠٠ شارع دنفير روشرو .

كل ذلك ورجل الشارع الذى لا يتورع عن الادعاء بأنه لا يتأثر بكل هذه « المهاترات » يصدق فى الواقع فى براءة كل مايطالعه « على صفحات الجرائد » . والصحفى المحترف يكون فى الواقع محايدا وأن كان ذلك لا يعنى أنه عديم الاحساس فهو لا ينفعل بصفة عامة من المناقشات السياسية أو القضايا أو التحقيقات البوليسية التى يكتب عنها : فقد شاهد الكثير منها .. وهذا لا يعنى أنه لا يهتم بهذه المسائل بل هو يكتفى بمتابعة الحوادث دون أن يدلى بدلوه فيها مع تركيز أهتمامه فى سردها فى أفضل صورة ممكنة ..

على أن الأمر ليس على هذا المنوال بالنسبة لرئيس التحرير إذ لديه من المبررات مايدعوه لأن ينحاز إلى جانب معين . فيرى لزاما عليه فى بعض الأحوال أن يصدر توجيهاته بناء على ماأتخذه من رأى . ولكن ليس من سلطته مع ذلك اختراع الحوادث أو تشويه الحقائق لأن مجرد الأطلاع على الصحف المنافسة سوف يجعله فى وضع سىء ان هو فعل ذلك ، ولكن أقصى مايمكنه فعله هو شرح المسائل أو التعليق عليها من وجهة نظره . (ولا جدال فى أن المعلقين على الحوادث والمعقبين السياسيين يكتبون مايعن لهم) .

وقد كتب روبير دو جوفنل فى عام ١٩٢٠ وهو أحد الصحفيين الذين لم تعرف عنهم صفات الملق حتى لزملائهم ، يقول « أن الصحفيين المحترفين يؤمنون برسالتهم ... ويحبون مهنتهم .. وهم أن بدا عليهم التردد ،

إلا أنهم على استعداد للاندفاع فى الحماس إلى أقصى حد، وان كان ظاهرهم النفع إلا أنهم قادرون على التزام جادة الحياد بكل دقة .. وهم بصفة عامة يسمون بشرف المهنة سموا عظيما .. »

الصحف السياسية :

وفيما عدا الصحف الأربع الكبرى وهى أكثرها إنتشارا : لوبتى باريزيان ، ولو ماتان ، ولو جورنال ، ولوبتى جورنال ، ثم جريدة « لوطان » اليومية المسائية الكبرى كانت توجد الصحف التى لا تخدم إلا المبادىء السياسية عن طريق المقالات الرئيسية وكان يهتم بهذه الصحف عدد كبير من القراء الذين يتابعون المشاكل السياسية ولكنهم فى الوقت نفسه فى حاجة إلى التنوير والإرشاد لإدراك ماتنطوى عليه الحوادث اليومية من دلالة . . وهناك عدد من الصحف السياسية الخالصة والتى لم تكن تهم إلا جمهورا خاصا مثل جريدة « لومانيتيه » الاشتراكية وجريدة « اكسيون فرانسيز » الملكية وجريدتا « أوفر » و « لوراديكال » ـ الراديكاليتان وجريدة « رابل » المناهضة لرجال الدين . .

أما فى الأقاليم فقد تطورت الصحف بشكل ملحوظ بعد عام ١٨٨٠ وتحررت فى هذه الحقبة نهائيا من وصاية الصحف الباريسية عليها . واشتهرت من بينها « لابوتيت جيروند » التى كانت تصدر فى بودرو ، وجريدة « لاديبش » التى كانت تصدر فى تولوز وجريدة

« لوبروجريه » التى كانت تصـدر فى ليون . كما إشتهرت غيرها كثير، وأصبح لها من التأثير مالا يقـل عن صحف العاصمة وينبغى الا ننسى أن صحف الأقاليم كانت بالنسبة لأحزاب اليسار إداة فعالة فى الدعاية والتـــأثير .

وينبغى أن نشير كذلك إلى ما تميز به القرن التاسع عشر وهو ظهور الصحافة النسائية مثل « لاسيتولين » فى (١٨٨١) و « لافان كوريسه » فى (١٨٩٣) و « لافروند » فى (١٨٩٧) . . وكانت مطالبها تتمشى ومقتضيات العصر إذ ان الفرنسيات لم يـكن قد منحن بعد حق الانتخابات أو النيابة أو تولى المناصب الوزارية وان كن قد حصلن فى ذلك الحين على حق الإشتغال بالمحـــاماة ومزاولة مختلف المهن الأخرى . .

وأما المجلات الأدبية أو السياسية فكانت شهرية بصفة عامة وكانت كثيرة العدد ومقبولة لدى الجمهور . . وكان للدرويات المصورة نجاح لامراء فيه وقـــد إتفقت جميعها فى أن تبرهن على صدق ما قاله جول سيمون من أن « الصحـافة هى الفـكر المعزز بكل ما للروح من إبداع ولمحات » . .

التنظـيم الفنى :

ينبغى أن نقـــرر أن الذى سهل انتشار الصحافة إلى هذا الحد الـكبير وكان أثره ا كبر من أثر تطور العادات والتقاليد هو ا كتمال

الوسائل الآلية للطباعة التي تقارن في نتائجها بالوثبة التي وثبتها الغازيتات عندما اخترعت المطبعة .

ففي عام ١٨١٨ تمكن بيير لوريللي الذي كان يعمل بالمطبعة الأهلية من تحسين حبر الطباعة ولكن الثورة الحقيقية في الصحافة تحققت بصفة خاصة حينما كشف هيبوليت ماريتوني في عام ١٨٦٧ عن أول آلة اخترعها للطباعة وهي آلة (الروتاتيف). وتبع ذلك اكتشاف لا يقل عنه أهمية وهو ادخال اللينوتيب في فرنسا عام ١٨٩٠ وهي آلة بها معدن منصهر يسيل حروفا ؛ سطرا بسطر حسب الحاجة اليومية . والمعروف أن العدد الواحد المكون من ست صفحات يحتاج في إخراجه لأكثر من ٣٠٠٫٠٠٠ حرف ! واللينوتيت آلة « جمع » الحروف أما الروتاتيف فهي آلة « الطبع » وهي تقوم إلى جانب ذلك بتجميع الأعداد وتطبيقها نصفين وعدها عن طريق قذف العدد الخمسين إلى مسافة تبعد قليلا عن باقي الاعداد على نحو يسهل لفها بعد ذلك في لفافات تحتوي كل منها على خمسين نسخة . وإلى جانب كل هذه التسهيلات تطبع آلة الروتاتيف ٩٦٫٠٠٠ نسخة في الساعة .

وهكذا تقدمت الجريدة بسرعة في كل الميادين . ونكتفي بايراد مثلين لاظهار هذا التقدم فنذكر أن صحيفة « لوماتان » كانت تطبع في سنة ١٨٩٩ حوالي ٧٨٫٠٠٠ نسخة بينما وصلت في سنة ١٩٠٢ إلى طبع ٢٨٥٫٠٠٠ نسخة وفي سنة ١٩٠٥ إلى ٤٨٣٫٠٠٠ نسخة وإلى

مليون نسخة فى عام ١٩١٤ . أما جريده لوبتى باريزيان فقفزت من ٧٧٧ر٠٠ نسخة فى عام ١٨٩٩ إلى ٥٥٠ر٠٠٠ر١ نسخـة فى عام ١٩١٣ . وبلغ مجموع ما تطبعه إحدى وأربعون صحيفة يومية تظهر فى باريس فى عام ١٩١٤ مايقرب من ستة ملايين نسخة .

التقدم التجارى للمؤسسات الصحفية :

أدى تحسن وسائل الأعلام واكتمال أساليبه الفنية على النحو الذى عرضناه إلى زيادة حتمية كبيرة فى ميزانية المؤسسات الصحفية . وقد كتب مسيو دسترم[1] فى ذلك يقول «أن إخراج مثل هذه الجريدة يتطلب رأسمال يصل إلى عدة ملايين » (فى ١٩٠٢) مما أدى بكبرى المؤسسات الصحفيه إلى أن تدخل بعضها مع البعض فى منافسات حادة . واخذ مديروهـا يتسابقون فى ابتـداع الأفكار لنشر التحقيقات الصحفية المثيرة أو تنظيم المسابقات أو اليانصيب أو توزيع الجوائز أو إعداد المفاجئات مما جذب انتباه الجمهور بشكل دائم وادى بالتبعية إلى تزايد الاقبال على الاعلان. ولـكى تفسح الصحف صدرها لهذا الاعلان زادت عدد صفحاتها من أربع إلى ست إلى ثمانى إلى عشر ثم إلى اثنتى عشرة صفحة .

وأدى هذا التضخم إلى جعل حياة الصحف متوسطه الموارد ، شاقة غير

---

(١) هـ . دسترم : الاحوال الاقتصاديه فى عالم الصحافة (١٩٠٢).

يسيرة مما دعى مسيو دستروم ، الباحث فى الظروف الأقتصادية للصحف أن يقول « أنه على الرغم من حرية الصحافة أو قل انه بسبب هذه الحرية غير المقيدة اصبحت الاخطار المامول فى تجنبها باصـدار قانون ١٨٨١ ونعنى بها زيادة تكتل المؤسسات الصحفية وسيطرة رأس المال على هذه الصناعة ، اقول أصبحت هـذه الأخطار اشدوقعا ممـــا كانت عليه فيما مضى » ..

تطور الصحافة الأجنبية فى القرن التاسع عشر:

يذكر جورج فيل أن « العوامل التى أدت إلى تحول شامـل فى الصحافة الدورية تجمعت بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٦٠ » ويجد الدليل على ذلك فيما يجرى خلال تلك الفـترة سواء فى فرنســا أو فى البــلاد الأوروبية الأخرى وفى أمريكا ..

ففى نيويورك تمكن داى وهو من عمال الطباعة السابقين بعد عدة محاولات فاشلة من اظهار جريدة « صن » بسنتيمين ... وكان يعمل على اجتذاب جمهور القراء برواية الجرائم والمآسى والقصص الأنسانية على نحو مفصل مخاطبا انصاف المتعلمين فأحرز نجاحا سريعا اذ بلغ عدد قراءة خمسة آلاف قارىء بعـد اربعة أشهر ثم وصـل إلى ١٩٫٠٠٠ قارىء فى سنة ١٨٣٥ .

وفى العـــام نفسه وبالسعر نفسه أخرج جـوردن بنيت جريدة

« مورننج هيرالد» مخاطبا رجال المجتمع والعمال فى الوقت نفسه ، مهتماً بمعالجة المسائل المالية لدوائر « وول ستريت » فضلا عن أنباء المسرح أو الاجتماعات الدينية . وكان له مراسلون فى العواصم الأوروبية . وكان العدد الواحد من جريدة هيرالد يتضمن فى عام ١٨٤٨ عشرة أعمدة من الأنباء البرقية فقط . . وبلغ عدد ما تطبعه فى عام ١٨٤٩ ثلاثة وثلاثون الف نسخة وباتت تحتاج إلى مساحة متزايدة على الدوام من اعمدتها لاستيعاب كل اعلاناتها .

وكان لثورة عام ١٨٤٨ أثر كبير على الصحافة فى كثير من الدول الأوروبية الكبرى تشابه فيها جميعا : فقد حظيت فى أول الأمر بحرية مطلقة اعقبها ازدهار ضخم أورث الصحف طريق الغواية وتلا ذلك كبت عنيف اعاد أصحاب الاقلام إلى الحظيرة من جديد دون حاجة إلى الالتجاء إلى الرقابة الوقائية التى باتت وسيلة مكروهة من الجميع وثقيلة على السلطة نفسها . وهذا هو ما حدث فى النمسا وفى بروسيا كما حدث فى فرنسا .

وفى برلين حدث هذا التكاثر نفسه . . وتدخل بسمارك بشخصه فلم يتوان عن الاهتمام بجريدة « نيوبروسيش زيتونج » التى جعل اسمها « كروز زيتونج » نظرا لشعار الصليب الحديدى المنقوش فوق اسمها . .

وكان تولى غليوم الأول الحكم فى عام ١٨٦١ بشيرا بنشر الحرية فى بروسيا . ولكن جاء بسمارك الذى عرف للصحافة قوتها ولكنه كان يحتقر الصحفيين . . . فأخذ يسن القوانين ذات الإجراءات التعسفية مما أدى إلى عزوف الصحف عن تناول السياسه الداخلية إلى حد دعا فرديناندلاسال الداعية الاشتراكى الكبير لازدرائها . .

وأما فى بريطانيا العظمى فقد استمرت الصحافة فى حياتها الآمنة الزاهرة . . وبلغت « ذى تايمز » ذروة مجدها وكانت تطبع بآلات ذات طراز حديث تخرج ١٠,٠٠٠ نسخة فى الساعة . وكان للنجاح الذى احرزته هذه الصحيفة الفضل فى أن تظل مستقلة تماما عن الأحزاب السياسية والزعماء السياسيين . .

ونظرا لأن الضرائب التى طالما عاقت انطلاق الصحف قد الغيت تمكنت الصحف التى تباع ببنس واحد (مثل الديلى تلغراف وذى ستاندارد) من الازدهار .. وأصبحت كما يقول جورج فيل :

« قوة من قوى المملكة المتحدة مثلها مثل الفحم أو الأسطول أو بنك انجلتره مما سمح للورد بولوير ليتون الروائى والسياسى من أن يصرح فى أحد الأيام تحت قبة البرلمان بقوله : « أيها السادة ، إذا كان على أن أقدم للاجيال القادمة دليلا على مدى مابلغته الحضارة الأنجليزية من تقدم فى القرن التاسع عشر فانى لن اختار لذلك موانينا ولا

طرقنا الحديدية ولا مؤسساتنا العامة ولاهذا البرلمان العظيم الذى نوجد فيه.. بل يكفيني لتقديم هذا الدليل عدد واحد من جريدة « ذى تايمز » .

وسرت عدوى الأنباء المثيرة البعيدة عن السياسة إلى الصحف اللندنية والأقليميه كما كانت الحال فى صحافة الولايات المتحدة.. وبدأت صحف المساء فى نشر الأنباء ذات الصدى البعيد والتحقيقات الصحفية الجريئة والأحاديث المكشوفة ونتائج الرياضة ، كل ذلك بعناوين ضخمة وقد نجحت جريدة « بال مال » فى ذلك الميدان بصفة خاصة..

ويمتاز عام ١٨٨٨ بتولى الفريد هارمزورث عرش الصحافة وهو الذى كان يسمى بحق (نابليون الصحافة) ، وقد أصبح فيما بعد لورد نورثكليف ، وهو صحفى موهوب اشترك فى عام ١٨٩٦ مع كيندى جونز فى أنشاء جريدة « ديلى ميل » التى برزفيها الخبر اليومى واحتل منها مكان الصدارة مع غيره من الأخبار المختلفة من سائر أنحاء العالم.. ويبدو أن هذا العرض للاخبار نال اعجاب الجمهور ، إذ أن هذه الصحيفة بدأت عند نشأتها بطبع ٣٩٥ الف نسخة ، وظلت تسير قدما حتى بلغ ما تطبعه بعد خمس سنوات مليون نسخة..

وفى علم ١٩٠٨ اشترى لورد نورثكليف جريدة « ذى تايمز »

وأضطر إلى ادخال كثير من التجديدات عليها بعـد أن اكتسحت الصحافة الجديدة كل وسائل الصحافة القديمة وقضت عليها . .

وكذلك فى سائر الدول الأوربية الأخرى كنا نلمس نفس هذه السمات العـامة ، أى تزايد عـدد الصحف وعـدد القراء وارتفـاع أرقـام المصروفات وازدياد خطورة الأعــلان الذى كان يغطى هــذه المصروفات ثم المنـافسة التى تزداد شــدة على الدوام بين الصحف . .

الفصل السابع

الصحافة أثناء الحرب العالمية الأولى

(١٩١٤ — ١٩١٨)

ظلت الصحافة تتمتع بحريتها ، ويطرد ازدهارها حتى وافت سنة ١٩١٤ وكانت الصحف تتبع الحوادث وتضاعف على الدوام فى معداتها الفنية وتواصل التنافس فى سبيل اجتذاب مزيد من القراء ومزيد من الاعلانات المجزية حتى وقعت كارثة سراجيفو (١) وتلاها على الفور اعلان الحرب .

وكان للحكومات فى جميع الدول المحادية هدفان : مراقبة الصحافة باعتبارها إداة لنشر الانباء ، واستخدامها كاداة للدعاية .

وقد تبدلت الحالة الاقتصادية للصحف بسبب اختفاء الاعلانات وازمة الورق ، وصعوبة النقل فى بعض المناطق.

وأما فى فرنسا فقد خول المرسوم الخاص باعلان الأحكام العرفية

---

(١) سراجيفو : عاصمة إقليم البوسنة بيوغوسلافيا حيث أغتيل ارشيدوق النمسا فرانسوا فرد يناند . . وكان هذا الحادث هو الشرارة التى اندلعت على اثرها نيران الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . .

فى ٢ أغسطس السلطة العسكرية حق الغاء الصحف الخطرة . وصدر منذ الأيام الأولى للمعركة قانون خاص «لمنع تسرب الأنباء عن طريق الصحافة فى زمن الحرب » وحدد لذلك عقوبة بالسجن تتراوح بين سنة وخمس سنوات وبغرامة تتراوح بين الف وخمسة الاف فرنك . وانشىء فى الحال مكتب للصحافة وفى ٤ أغسطس اذاع وزير الحربية بلاغا جاء فيه :

« على جميع الصحف الدورية أن ترسل اصولها إلى مكتب الصحافة أولا ثم تشرع بعد ذلك فى عملية الطبع والبيع فى الاماكن العامة دون الحصول على إذن خاص بذلك ولكنها تتعرض للمصادرة المباشرة إذا ثبت من فحص الأصول تضمنها لأنباء حربيه وصلت من غير طريق مكتب الصحافة » .

وعانت الصحافة فى الأقاليم من الرقابة المزدوجة التى فرضها كل من الحاكم العسكرى المنطقة ومدير الأقاليم .

وفى ١٢ أغسطس عينت الوزارة لجنة مؤلفه من خمسة وأربعين صحفيا يمثلون جميع الاتجاهات وتربطهم القضية المقدسة . وسادت الرغبة الصادقة والنظام وأظهر الصحفيون الفرنسيون من آيات الوطنية ما لا يرقى اليه الشك . . فقد كانت تحدوهم جميعا الرغبة فى المساهمة لإحراز النصر الذى طالما تمناه جميع الفرنسيون .

ولكن سرعان ماشاب هذا الصفاء بعض الظلال ، فقد كانت السلطة

العسكرية تعمد إلى إذاعة بيانات عرفهـا الجمهور عن طريق الصحافة وتقلل فيها من الفشل وتضخم الفوز وتحل فيها أسباب الأمل محل عوامل القلق . وربما كانت الضرورة تقتضى هذا الإجراء إذ أن جميع القيادات قد سلكت نفس السبيل . . ولكن الأمر كان ينتهى دائما بأن يعرف المدنيون الحقيقة ، وهؤلاء بدورهم اعتبروا الصحف هى المسئولة عما عانوه من تضليل فسخروا من كلامها ودمغوها بالتهويل والمهاترة . . وكان الصحفيون يؤمنون بأن رسالتهم تقتضى رفع الروح المعنوية فى الأمة ، فكانوا يعلقون على البلاغات الرسمية تعليقات تدعو إلى التفاؤل ويسردون أنباء الجبهة على نحو موات ويمتـدحون بطولة المحاربين ومجهودات القيادة التى تستحق كل تقدير الخ . . . . وحينما كان يصل هـذا الكلام إلى الخنادق فى الجبهة كان الجنود يقرأونه على مضض ويعلقون عليه بقولهم « ان كانت الحال على هذا النحو من النعيم فلماذا لا يحضرون ليستمتعوا معنا ! ! ! »

وقد زار رود يارد كبلنج خطوط القتال الفرنسية فوصف حال الجنود وصفا لا يخلو من طرافة قال :

« وجدت إحتقارا حقيقيا من جانب المحاربين للشخص الذى ذهب إلى الجبهة ليقص على الناس رواية بدمائهم . »

وسرعان ما ساد الهدوء هذه المبالغات الأولى . ولما كانت الأخبار السياسية نادرة خلال المعركة وكانت الأخبار الحربية خاضعة للرقابة

أفسحت الأنبـاء مكانها للمقالات والـكلمات التوجيهية والتعليقات على الأنباء والبلاغات الرسمية وأخذ كل من البير دومون وموريس باريس فى جريدة « أيكودى بارى » وكليمنصو فى « أوم ليبر » وجوستاف هرفيه فى جريدة « لا جيرسوسيال » التى أصبحت فيما بعـــد تسمى « لافيـكتوار » واشـترك معهم بعض القواد المتقـــاعدين والمدنيين الأكفاء فى سرد الأسباب التى تدعو للاطمئنان وإستتباب الهـــدوء والمثابرة ، وإن كان كل ذلك لم يمنع البعض منهم بين الفينة والفينة من الحـكم على إدارة دفة الحرب وتوجيه النقد للمسئولين عن عملياتها .

وفى ٦ أغسطس سنـــة ١٩١٥ اصـدر مجلس الدولة مرسوما يعلن أن قانون عام ١٨٤٩ الخاص بالاجراءات الوقاية مازال قائما . . فعطلت جريدة «لوجورنال دى بوبيل» إحدى عشرة مرة خلال ستة أشهر كما عطلت جريدة « لوبونيه روج » فى عدة مناسبات . وكانت جريدة كليمنصو « ادم ليبر » ـ اى الرجل الحر ـ قد عطلت لمدة ثمانيـــة ايام فى ٣٠ سبتمبر ١٩١٤ وحلت محلها جريدة « اوم انشينيه » ـ أى الرجـــل المكبل ـ . .

ولم يلغ كليمنصو الرقابة بطبيعة الحال حينما تسلم مقـــاليد الحـكم ولـكنه جعلها أكثر تسامحا وخاصة فيما يتصل بالمسائل الشخصية وبالرسوم الـكاريكاتير التى يمكن أن تتناول شخصه . .

وحينما ارشكت الحرب على النهاية تحسنت العلاقات بين الصحافـة

والرقابة على نحو واضح فقد كان القائد توسيلار ـ مدير الرقابة ـ يتبادل والصحفيين الأحاديث التليفونية بروح الزمالة والتعاون..

وأخذ بعض المراسلين الحـــربيين يتتبعون العمليات الحربية فكان ينظر اليهم فى أول الأمر بعدم الارتياح من جانب القيادة وتلك مسألة مفهومة .. فما من شىء يزعج من يقوم بعملية دقيقــة اكثر من عين الرقيب .. وخاصة إذا كانت مهمة ذلك الرقيب هى اذاعـة ما يرى . ثم تعود كلا الجانبين رويدا رويدا التعاون على تأدية هذه المهمة الوطنية ، واندمج بعض المراسلين الحربيــين غير المسلحــين فى عملهم فشــاطروا المحاربين المخاطر نفسها وكان منهم من خر صريعــا فى ميــدان البطولة والشرف .

وأما المشروع الذى اذاعه رينيه فيفيــانى الخاص بأنشاء « مــكتب الصحافة » فلم يتحقق إلا فى يناير ١٩١٦ تحت إشراف ارستيد بريان. وكان المــكتب يضم عدة أقسام سياسية وحربية واقسام للدعاية تغذيها المصادر الحــكومية والصحافة الأجنبية بالمقالات والأنباء التى تترجم وتناقش. واصدر المــكتب منشورات للدعاية القيت على صفوف الألمان .

وقد عمــد الألمان من جانبهم إلى إصدار صحف فى المنــاطق التى كانوا يحتلونها نخص بالذكر منها جــريدة « لاجازيت ديزاردن » التى كانت تعد فى مدينة شارلفيل على مطابع جريدة فرنسية وكانت الطبعــة

الألمانية منها مشحونة بالأنباء الموجزة المعدة على نحو خاص يجعل تجرع الكأس مستساغا ..

وهناك دليل جديد على خطورة شأن الصحافة التى تحولت إلى سلاح من أسلحة الحرب .. ولكن هذه المهمة الأخيرة قد تكون خداعة إلى حد كبير ، اذ لم تكن مثل هذه الدعاية لتنطلى على قارىء فرنسى واحد بل انهم كانوا يقرؤون فى كثير من الشغف الصحف السرية مثل « لاباسيانس » ـ اى الصبر ـ أو « لوازو دو فرانس » ـ أى الطائر الفرنسى ـ التى كانوا يخفونها تحت المعاطف فى إقليم ليل، كما كان يقرأ البلجيكيون فى كثير من الحماس جريدة « لاليبر بلجيك » ـ أى بلجيكا الحرة ـ .

ولم يحرم المحاربون انفسهم من الصحف .. فقد خصصت صحيفة « لوبولتان ديزارميه دو لاريببليك » ـ أى نشرة الجيش الجمهورى ـ لمعسكرات الجيوش .. وامروزير الحربية ان توزع هذه النشرة (وكانت تطبع فى مطابع الجريدة الرسمية) بمعدل نسخة واحدة لكل ضابط ونسخة لكل عشرة جنود .

وبين ايدينا العدد رقم ٣١١ من هذه النشرة الصادر يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر ١٩١٦ ـ وفى موجز هذا العدد ترد العناوين التالية :

دليل الجندى ، المسرحون والمرقون والتوابع ـ معركة المارن (بمناسبة الذكرى الثانية لوقوعها) . ـ حديث لمستر لويد جورج على

أثر زيارته لميدان فردون ـ بحث في الغليون ـ قصاصات من صحف الجبهة . ـ صفحة التسلية (ألغاز — احاجى — مسائل ..) — العمليات الحربية ..

ونلاحظ في هذا الثبت الباب الخاص باستعراض مايرد في « صفحة الجبهة » . والواقع ان الجبهة كانت تخرج صحفا خاصة . فقد كان من بين الجنود كتاب وصحفيون ورجال ممتازون من جميع المهن استغلوا قدرتهم في سبيل الترفيه عن زملائهم بتحرير صحف تحل محل الصحف الأخرى التي تصدر بعيدا وقد لا تصل إلى الصفوف الامامية للجبهة . وكان في مقدور الجنود الاستغناء عن كثير من الاشياء ولكن لم يكن في مقدورهم على الاطلاق الاستغناء عن الصحف ، لذلك كانوا يعدونها بانفسهم ..

وقد أعد في « مكتب الصحافة » الذي كان يديره مارسيل بريفو قسم خاص برياسة بول رينو ، بقصد الإفادة من صحف الجبهة في الدعاية لفرنسا في الخارج .. وهي وسيلة لم تكن في الحسبان لإظهار العالم على الروح المعنوية العالية للجيوش الفرنسية . والواقع أن صحف الجبهة كانت عديدة ، وكانت كلها تفيض بروح الدعاية والأمل في المستقبل على نحو يستحق الإرشاد والتقدير لمن كانوا يقومون بتحريرها . .

وفي إنجلتره كان نظام الصحافة خلال الحرب يشبه إلى حد بعيد النظام الفرنسي وقد أخذ بطريقة الرقابة الوقائية على الصحف باعتبارها وسيلة سهلة لتوفير الإطمئنان وأن لم تكن ملزمة قانونا . .

وفى نوفمبر ١٩١٤ حصلت الحكومة على حق تفتيش ومصادرة المطبوعات التى يتبين خطرها . . وقد استخدم حق المصادرة فى إيرلنده بصفة خاصة وكذلك فى جلاسجو ضد جريدة « فروارد » — أى إلى الأمام — التى كانت توجه للعمال مقالات تشيع فيهم روح الهزيمة . .

وأما عن العقوبات الرادعة فقد خلا القانون من كل نص يحددها ومع ذلك سار العمل بهذا النظام بفضل تعاون الجميع وتوفر حسن النية . . ولم يشذ عن هذه القاعدة الا لورد نورثكليف الذى كان يعيب على الحكومة بطئها ورخاوتها . .

وكان مركز الصحافة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى بداية الحرب العالمية الأولى مضطربا على الرغم من النهضة التى هيأتها لها الحوادث . . فقد وضعت شركة الصحافة التى أسسها همرلنج عام ١٩٠٨، نفسها فى خدمة المانيا. واذاعت نداء وجهه اربعمائة وخمسون من مديرى الصحف للشعب الامريكى مطالبين فيه بتحريم صناعة الذخيرة الحربيه أو تصديرها هذا فى الوقت الذى هاجمت فيه صحافة هيرست بمنتهى العنف كل محاولة تدعو إلى إتباع سياسة تنتهى بالصلح مع الالمان . . ولكن بعد دخول الولايات المتحده الامريكية الحرب وحدت الحكومة الرأى العام وجذبته إلى صفها ولم تعد فى حاجة إلا إلى إقامة رقابة إحتياطية خفيفة على البرقيات فقط . .

الفصل الثامن

الصحافه فى فترة ما بين الحربين

تقدم التضامن المهنى

الصحافة المتكلمة

كان من الطبيعى أن تلغى الرقابة بعد ان وضعت الحرب اوزارها فى عام ١٩١٨ فاستعادت الصحافة حياتها الطبيعية ولم تكن هناك حاجة إلى حدوث انقلاب للانتقال من حالة الحرب إلى حالة السلم خاصة وإن الجزء الأكبر من الأراضى الفرنسية لم ينكب بالاحتلال . . ولم تكن الصحف قد انقطعت عن الظهور بل كان الكثير منها قد زاد فى عدد النسخ التى تطبعها بسبب ما اوجدته الحوادث من اهتمام غير عادى بمختلف الشئون . .

وكانت الصحف الخمس الكبرى فى باريس تعتمد فى حياتها اعتمادا كبيرا على الاعلانات الوفيرة التى مكنتها من العودة إلى قطعها العادى . . وكان كل شىء فى ذلك الوقت بثمن حتى ان النشرة المسرحية ذاتها — فيما عدا نقد المسرحيات ـ لم تعد بالمجان فى بعض الصحف اليومية

واضحى التنافس شديدا وعادت الحالة إلى ما كانت عليه فيما قبل الحرب على وجه التقريب . .

وأما الصحافة البريطانية فإنها كانت تتميز من غير شك فى تلك الفترة بما تضمه بين أعطافها من فيض هائل من الأخبار الخارجية يعز نشره على أية صحيفة أخرى فى العالم .

وبين عامى ١٩٢٢ — و ١٩٢٨ تأسست ثلاثة إحتكارات كبيرة . فكان لورد روذرمير الذى خلف نورثكليف يدير صحف « الديلى ميل » و « الديلى ميرور » و « صنداى بكتوريا » و « وصنداى ديسباتش » و « ايفننج نيوز » . . وكان لورد بيفربروك يسيطر على صحف : « ديلى اكسبريس » و «صنداى اكسبريس» و «ديلى سكتش» و « صنداى جرافيك » و « وإيفننج ستاندارد » . . وكان إخوان بيررى وهم من رجال الأعمال الذين لا يهتمون بالسياسة يملكون جريدة ديلى تلجراف .

وكانت الحالة فى أمريكا شبيهة بما كانت عليه فى فرنسا ، إذ أن الرغبة المتزايدة فى الحصول على إعلانات كثيرة كانت تستلزم زيادة عدد النسخ وملئها بالأخبار المثيرة . .

ولكن الصحافة امتحنت بالأزمة الإقتصادية التى حلت فى عام ١٩٢٩ إذ إننا لم نر حتى الآن حدثا سياسيا أو إجتماعيا أمكن للصحافة أن تقف حياله غير مبالية أو غير شاعرة به . وحتى ذلك الوقت كانت الصحف قد عرفت الازدهار ونذكر أنه فى أول يناير من عام ١٩٢٧ ، كان

عـــدد الصحف ٢٠٧٦٦ صحيفة منهـــا ٢٣٣٢ جريدة يومية تطبع ٣٥٫٠٠٠٫٠٠٠ نسخة . .

ولتحديد طبيعة الفارق بين القارىء الأمريكي والقارىء الانجليزي في الذوق وكيفية إستخدام الصحيفة يقولون أن الانجليزي يقرأ صحيفته بينما ينظر الأمريكي اليها أو يتصفحها ومن هنا غلبت على القارة الامريكية إستخدم العناوين الضخمة مقرونة بأكثر من ملخص وبالصور الكبيرة بغية إجتذاب نظر القارىء . .

ومن هنـــا أيضا ساد دون شك ذلك التقليد الذي يقضي بوضع بداية كثير من المقالات في الصفحة الأولى وإحالة القـارىء على أية صفحة أخرى في الداخل لإتمام قراءتها (البقية صفحة . . .) وتهدف الصحيفة من وراء هـــذا التقليد إلى أعطاء القارىء من أول نظرة فـكرة عن الحالة العامة والاحداث الجارية . . (وكلنا نعلم أن هـذا التجديد قد انتقل من أمريكا إلى مختلف أنحاء العالم) . .

وعرفت الولايات المتحـدة ما عرفته أوروبا من تجمعـات صحفية فنشأت دار هيرست للصحافة وكان ولنم راندولف هيرست يملك عشر دوريات كما كان يسيطر على حوالي خمسـين أخرى ترتبط به بروابط مختلفة . .

وإنفردت أمريكا بنوع خاص من التنظيم يقضي بأن تقوم الصحف

الكبرى بتبادل نشر المقالات والبرقيسات والتحقيقات الصحفية وكانت النسخة منها تباع إلى خمسين أو ستين أو لمائتى صحيفة مما جعل الأمر يبدو فى وضوح أنه نوع من التجارة الغريبة فى إنتاج الصحفيين . .

أما البلاد التى فيها النظام الفاشى فسرعان ما قضى على الحرية . . ففى سنة ١٩٢٨ تحدث موسولينى إلى الصحفيين فقال « فى ظل النظام الموحد لا يمكن للصحافة أن تكون غريبة عن هذه الوحدة . . ومن أجل هـذا كانت الصحافة الإيطالية بأسرها صحـافة فاشية وهى لا بد فخورة بالكفاح تحت راية الفاشية . . وليس من شك فى أن أكثر صحافة العالم تمتعا بالحرية هى الصحافة الايطالية . . »

وقد خولت القوانين التى صدرت عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٤ سلطات واسعة لحـكام المقاطعات على هذه الصحافة « الحرة » .

وفى المانيا الغت الحكومة الاشتراكية الوطنية الصحف الاشتراكية والشيوعية وطردت اليهود وغير الآريين من الصحف واحلت محلهم من كانوا يدينـون بالولاء لجـوبلز وزير الدعاية . وبعـــد مضى عام واحد على النظـــام الديكتاتورى تقلص عدد الصحف اليوميـــة الألمانيـة من ٧٠٠ ر ٢ إلى ٢٠٠ ر ١ كما تقلص عـدد الصحفيين والعمال والموظفـــين والمشتغلين بالصحافة من ٠٠٠ ر ١٩ إلى ٢٠٠ ر ٥

وفى روسيا كان النظام القيصرى فى مستهل القرن يفرض سيطرته

الديكتاتورية على الصحافة بمختلف وسائل الضغط مما سبب انتشار عدد كبير من الصحف السرية . ثم طرأت في عام ١٩٠٥ فترة قصيرة من الحرية النسبية . .

وعمدت ثورة ١٩١٧ إلى زيادة الصحف الاشتراكية وإلى القضاء على الصحف الملكية ثم قضى التشريع الذى صدر عام ١٩١٨ قضاء مبرما على الصحف البورجوازية ثم قضى بعد ذلك بستة أشهر على الصحف الاشتراكية المعارضة .

تقدم التضامن المهنى .

فى الفترة بين الحربين أى فى المرحلة التى بدأ العالم يستعيد أنفاسه بالتدريج من أثر التقلبات التى عاناها من الحرب الأولى وكان مايزال بعيدا عن التنبؤ بوقوع الثانية عادت الصحف الباريسية الكبرى إلى تنافسها الشديد فى المجال التجارى كما استأنفت صحف الرأى صراعها فى المجال السياسى . .

وكان جميع مديرى الصحف قد اصبحوا أعضاء فى نقابة الصحف الباريسية التى تأسست عام ١٨٨٢ وان كان ذلك لايعنى أن التضامن بينهم كان تضامنا وثيقا .. ثم اتحدت هذه النقابات نفسها بتجمعات أخرى داخل اللجنة العامة لرابطات الصحافة الفرنسية . . ولم يعد من مهمة هذه الهيئات مواجهة الأخطار التى زالت بل كان الهدف

من انشائها الدفاع عن النظام الجمهورى الذى لم تكن أقدامه قد ثبتت بعد .

ولكن سرعان ما لحقت الأزمة الاقتصادية بالمشروعات الصحفية وأزعج مديرى الصحف ارتفاع أسعار الورق بصفة خاصة .. وفى عام ١٩٢٠ عادت نقابة الصحف الباريسية إلى الوجود برئاسة جين ديبوى مدير جريدة « بوتى بارزيان » وضمت جميع الصحف بما فى ذلك صحافة الرأى . . ولما كانت الأزمة شاملة وكانت تهدد الصحافة بأكملها فقد تجمعت الصحافة الأسبوعية فى المناطق والأقاليم داخل نقابات وتألف منها عام ١٩٢٣ الاتحاد القومى للصحف الفرنسية تحت رئاسة هنرى سيمون مدير « ايكو دى بارى » . .

وأخذ الاتحاد على عاتقه إيجاد حلول للمشاكل ذات الطابع المشترك كمشاكل الحصول على الورق ومشاكل النقل والأجور وماإليها . فألف لجنة خاصة لتوفير الورق كما ألف فى داخل كل نقابة لجنة فنية ترعى كل المسائل المتصلة بنقابات الصحفيين وموظفى الصحف وعمالها .

وفى عام ١٩٣٧ عقد الاتحاد اتفاقا مع المكتب الفرنسى لورق الصحف ، كان من مميزاته القضاء على التفرقة بين الصحف إذ كان كبار المستهلكين من أصحاب الصحف حتى ذلك الوقت مميزين جداً على صغارهم .

ثم جد نزاع ذو طابع جديد كل الجدة كان حافزا لوضع نظام لم

تمهده الصحافة من قبل ونعنى به مسألة جريدة « لافى دى بييل » .. ذلك أن أحد تجار العطور الأثرياء وهو مسيو كوتى أسس هذه الجريدة وفكر فى بيعها بنصف ثمن الصحف الأخرى فى سبيل ترويجها..

وناضله الاتحاد نضالا صريحا وخاصمه أمام القضاء ولكن المدعى عليه كان قد عول كثيرا على ملايينه ولكنه اضطر إلى التخلى عن جريدته أثر وداحة الخسائر التى منى بها ..

وجدير بالتسجيل أنه منذ تلك الفترة ومديرو المؤسسات الصحفية لايقدرون على السماح لأنفسهم باتخاذ قرارات تتعارض والتقاليد المهنية وكذلك كان الحال فيما يتعلق بالعلاقات بين المديرين والمحررين..

وظلت المنافسات وحدها تلعب دورها وكانت تقوم فى بعض الاحيان منازعات حول استخدام المحررين المشهورين وكبار المخبرين .. الذين كانوا قد عرفوا كيف يسيطرون على عقول الجماهير وذلك عن طريق اغرائهم بزيادة مرتباتهم .. وقد تنبه بعض مديرى هذه « المنشآت » الصحفية الكبيرة لمدى الفائدة التى قد تعود عليهم من وراء عقد اتفاق ودى لوقف تيار هذه المنافسة الباهظة الثمن . فقرروا باتفاق فيما بينهم عدم قبول توظيف أى محرر فى المستقبل مالم يتمكن من تقديم مايثبت أن رئيس تحريره السابق قد استغنى عن خدماته .. ولم يعد من المباح تغيير « الدار » إلا بإذن من صاحب العمل «..وكان ذلك مثلا للصحفيين فى فوائد التضامن المهنى ..

وأما عمال المطابع فقد كانوا منذ امد طويل متحدين اتحادا قوية وقد طالبت نقابتهم بعد عام واحـد من اعلان الهـدنة بزيادة الاجور (خمسة فرنكات يوميا) ورفضت الزيادة « لعـدم امكان النظر فيها الا بشرط رفع سعر الصحف » .

وتقرر الاضراب فى ١٠ نوفمبر ١٩١٩ وتعاونت خمسون جريدة لاظهار صحيفة .. « لا بريس دوبارى » التى خصصت العدد الأول منها لذكرى توقيع الهدنة . وفى هذا العدد ظهرت العناوين التاليـة : زيارة لمدينة الهدنة ـ مرور عام على فرنسا بعد اســترداد الالزاس ـ لندن تستقبل بوانكارية استقبالا منقطع النظير ـ تعطل غالبية مصانع الضواحى أمس لعدم وجــود الفحم ـ اضراب العمال الـكبرى ـ تم أمس رفع صفارات الانذار من فوق أبراج كنيسة نوتردام ..

ولم يشــارك الصحفيون على أى نحو فى هــــذه الحركة التى كانت لا تعنيهم وكانوا هم انفسهم غير منضمين إلى منظمات مهنية ..

وكان بعض الصحفيين قد انضموا إلى جمعيات نقابية مهنية هدفها كما نصت عليه لائحة أحداها هو « إيجاد العلاقات المتبادلة وتأكيد روابط الزمالة .. » ولم يكن تكتلهم يهدف إلى تكوين جماعة تناهض أى فـكرة أو أى منظمة ولـكنه اتحاد أخوى مسالم .. » وأخيرا كانت هذه المنظمات « تحظر كل مناقشة سياسية أو دينية فى الاجتماعات » ..

وكان أقدم هذه الجمعيات « الاتحاد النقابى المهنى للصحفيين الجمهوريين

الفرنسيين » الذى تأسس فى ٩ ابريل ١٨٨١ وكان هناك رابطة لكل فرع من فروع التخصص المهنية الصحفية ثم انضمت الرابطات الرئيسية منها لتكوين « اللجنة العامة لرابطات الصحافة الفرنسية » وهى التى عينها وزير التجارة لتكون اللجنة العليا للصحافة فى المعرض الذى أقيم عام ١٩٠٠ ..

وكان الصحفيون الذين ينضمون إلى هذه الجمعيات فى مستهل هذا القرن وحتى وقوع الحرب العالمية الأولى يشتركون فيها لتناول وجبة العشاء من وقت لآخر مع زملائهم (بسعر لاتزيد تكاليفه عن ستة فرنكات) ولكى يجدوا مايسد فراغهم عند الحاجة . ولم يفكروا اطلاقا فى التكتل للحصول على شروط افضل للعمل أو لتحسين أحوال أعضاء المهنة .

ولكن سرعان ماتغير الأمر عندما تضافر مديرو الصحف وتجمعوا فى رابطة كما عرفنا وكانوا يجيبون على كل طلب أو التماس بعبارة « هذا هو الموجود » ولما كان « باب النجار مخلعا » على حد تعبير المثل الشائع ، لم يكن للصحفيين أى منبر يعرضون عليه مطالبهم ..

وعم الاستياء فى سرعة مما جعل نقابة الصحفيين التى أسسها جورج بوردون عام ١٩١٨ تصادف نجاحا مضطردا إذ انضم اليها ١٢٠٠ عضو عام ١٩٢٧ وزاد عددهم إلى ١٨٠٠ عضو عام ١٩٣٤ .

وفيما يلي ما كان عليه نص ميثاق الصحفيين المنضمين للنقابة :

« أن كل صحفي جـــدير باسمه قمين بان يتحمل مسئولية كـل كتاباته حتى ولو كانت غير موقعة باسمه وأن يعتبر الافـتراء والتشهير والاتهام بغير دليل من أكبر أخطاء المهنة ولا يقبل إلا المهمات اللائقة بشرف المهنة ويمتنع عن اتخـــاذ أى لقب أو أية صفة وهمية فى سبيل الحصول على الانبـاء ولا يتقاضى مالا من خدمة عامة أو من مؤسسة أهلية حيث يمـكن استغلال صفته الصحفية أو نفوذه أو علاقاته لصالح هذه الهيئات ولا يوقع باسمه مقالات لها صفة اعلانية بحتةسواء أكانت تجارية أو مالية ولا ينتحل أى قول ولا يلتمس مكان زميله ولايسعى إلى عزله مقترحا أن يحل محله بشروط أدنى ويحافظ على سر المهنة ولا يسيء اطلاقا استخدام حرية الصحافة فى هدف مغرض . »

ومما يجدر التنويه به قانون ٢٩ مارس ١٩٣٥ المتضمن فى الجزء الأول من الباب الثاني من مجموعة قانون العمل، إذ نص للمرة الأولى فى التاريخ على تحديد دستور الصحفى المحترف ، فتضمن تعريفـا لهذا التعبير ومدة الانذار فى حالة تحرير العقد والمكافأة فى حالة الاستغناء وإلغاء العقد فورا فى حالة تغيير الصحيفة لاتجاههـا والاجازة السنوية بالأجر الكامل وحمل بطاقة شخصية صحفية وحسب لكل شيء حسابه ونظمه تنظيما !..

وقامت النقابة بطبيعة الحال بدور هام فى سبيل اعداد هذا التشريع أما الصحفيون البرلمانيون الذين كانوا فى حالة تؤهلهم لمعرفه وسائل تقصير الاجراءات والاسراع بهـا فقد اجروا اللازم وتمت الموافقة على القانون فى أقصر مدة ممكنة وكان هنـاك صحفيون مرخص لهم بدخول مجلس الشيوخ فتمكنوا من الحصـول على موافقة المجلس فى اليوم التـالى ..

وجدير بالذكر ان تصرفات النقابات الصحفية والاتحاد العـام من حيث الروح الجماعى كانت دقيقه إلى حد لم يـكن معهودا إلى ذلك الحين . فـكانت العلاقات بين الأجراء وأصحاب العمل سليمة تماما والواجبات والالتزامات مرعية تمـام المراعاة وعند ظهور أى خلاف كانت الوسيلة الوحيدة لتسويته هى الرجوع إلى نص القانون ولذلك كانت الصحافة الصناعة الوحيدة التى لم يضطرب نشاطها أثناء الفترات الحرجة من عام ١٩٣٦ . .

هذا وقد رأينـا أن الصحافة فى تقدمها فى كل البـلاد كانت منذ أمد طويل تتبع طريقا يكاد يتشابه فيها جميعا على وجه التقريب ولذلك لم يكن من الغريب تحقيق فكرة هيئة دولية للصحافة فى وقت قصير ..

ففى عام ١٨٩٦ إجتمع ممثلو ثلاثمائة صحيفة من كل البـلاد لعقد مؤتمر دولى فى بودابست . . ووافق المؤتمر على الـلائحة الأساسية فى جو من الحماس لتسجيل «فجـر عهد جديد » . . .

وفى المؤتمر الذى عقد عام ١٨٠٠ فى باريس ذكر رئيس المكتب المركزى الدولى مسيو غليوم سنجر برنامج الاتحاد الدولى لاتحادات الصحافة فقال :

« لقد عقدنا العزم على تأليف هيئة دولية كبرى تكون بمثابة صليب أحمر أدبى وتقوم على الاحترام المتبادل وعلى الروابط الوثيقة التى تؤلف بينهما مصالحنا المهنية المشتركة . . الأمر الذى لا يستدعى بحال من الأحوال التضحية بالعقيدة الثابتة فى حب الوطن . . »

وفى عام ١٩٢٦ تأسس الإتحاد الدولى للصحفيين وكان يضم خمسة وعشرين إتحادا . وكان كل اتحاد من هذه الإتحادات يعترف ضمنا عند إنضوائه تحت لواء الإتحاد العام بمبادىء تلك المؤسسة النقابية . .

وفى سنة ١٩٣١ إفتتحت فى لاهاى محكمة الشرف الدولية وتتألف هيئة المحكمة من صحفيين محترفين . .

ثم توالت الاجتماعات الدولية مرة فى جنيف فى مقر عصبة الأمم ومرة فى كوبنهاجن عام ١٩٣٢ وأخرى فى مدريد عام ١٩٣٣ ونوقشت فى هذه الاجتماعات وسائل محاربة الأنباء الكاذبة ووسائل تنمية المعرفة المتبادلة بين الشعوب عن طريق إستكمال وسائل الأعلام . .

وفى العام نفسه اجتمعت فى بودابست اللجنة التنفيذية للاتحاد الدولى للصحفيين واتخذت قرارا فضحت فيه المحاولات العدوانية التى

قامت بها الحكومة الألمانيـة ضد حرية الصحافة ووجهت اللوم إلى اتحاد الصحافة الألمانية الذى لم يقم بأى عمل لمعارضة مثل هذه الاجراءات أو على الأقل لعدم الموافقة عليها

الصحيفة المتكلمة :

فى اليوم الخامس من نوفمبر عام ١٨٩٨ التقى دوكريتيت باللاسلكى رسالة من برج ايفل موجهـة إلى البانثيون . . وكانت معجزة حقا . . ولكن كان لابد من الانتظار عدة سنوات أخرى حتى يمكن وضع هذا الكشف موضع التنفيذ .

وبعد خمس وعشرين سنة أى فى عام ١٩٢٣ فكر موريس بريفا الروائى والصحفى فى الاستعانة بالتلغراف اللاسلكى فى انشاء جهـاز للأخبار الشفوية وقد أطلق عليه اسم الجريدة المتكلمة . .

والتمس من الحكومة التصريح له بأن يلحق بالمحطة العسكرية فى برج ايفل جهـازا صحفيا . . ودام انتظاره لهذا الترخيص مدة طويلة لأن السلطات لم تدرك بوضوح أهمية الاقتراح . .

وما أن تمت الموافقة الرسمية فى عام ١٩٢٤ حتى شيدت على الركن الشمالى من برج ايفل حجرة ركب فيهـا ميكروفون وبدأت الجريدة المتكلمة العمل يوميا . . وكان نصرا مبينا فقد تهافت رجال العصر من الحائزين على الجوائز الأدبية والحاصلين على الرتب الرياضية والسياسيين

وغيرهم على ذلك الميكرفون المتواضع المركب فى البرج . أما المصروفات والإيجـار ومرتبات المحررين (التى لم تـكن مرتفعة) فكانت تدفع من مالية جمعية أسسها موريس بريفا تحت اسم « أصدقاء برج ايفل » . ثم ساهمت ادارة البريد والتليفون والتلغراف فى اعانة الجريدة المتكلمة تمهيدا لأحتكارها فى المستقبل .

وبعد ذلك اختلف موريس بريفا مع الإدارة المذكورة لأنه كان يود الاحتفاظ بحريته المطلقة واضطرت جماعة « الأصدقاء » إلى التخلى عن مكانها « للاتحاد القومى لبرج ايفـل » . . وهجرت الحجرة التى أقيمت فى أعلى البرج ، وانتقلت الجريدة المتكلمة إلى السراى الكبرى بالشانزليزيه تحت إدارة جورج ديلامار وبقيت هنـاك من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٣٦ .

ويبدو أن جورج ماندل كان أول من أدرك خطوره هذه الإدارة من الناحية السياسية وأهمية إخضاعها للحكومة . . ولم يكن يتحرج من دعوة محررى الجريدة المتكلمة إلى مكتبه بوزارة البريد والبرق والتليفون لإرشادهم وتزويدهم بالتعليمات وتوجيه اللوم إليهم إذا إقتضى الأمر . .

وقد أخذت إذاعات « راديو باريس » منـذ عام ١٩٢٧ صورة الجريدة . . ويرجع الفضـل فى ذلك إلى بيتيتو ـ كارتلييه . . وكانت أبواب الجريدة منتظمة ومرتبة ويكمل كل منها الآخر على وجه السرعة . .

ـ ضربات طبول الحرس لحنا مميزا يطبع فى ذاكرة المستمعين فى ذلك الحين جريدة حقيقية متنوعة الأبواب يقوم فيها كل محرر ومستحدث بباب خاص . . وتعد الجريدة المقروءة التى تقدمها الإذاعة الفرنسية الآن صورة مصغرة لما كان يسمى بجريدة الاذاعة الفرنسية رد ولم تبق التجديدات من أبواب الجـــريدة القديمة إلا بابا واحدا هو « رسالة الأقاليم » الذى إبتدعه دلتيل ـ كلوزو فى عام ١٩٢٨ . .

وكان فى مقـدور المستمعين حتى عـام ١٩٣٩ الانصات لمحطات الاذاعة الأهلية فوق التى تشرف عليهـا الدولة مثل راديو سيتى وايل دوفرانس ، وبوست باريزبان ، وراد يوترانت ست، هذا عدا المحطات الاقليمية التى لا حصر لها . . فكان امام المستمع فرصة كبيرة للاختيـار بينهـا . .

وجدير بالذكر أن هذه الاذاعات بلغت فى الواقع مرتبة الصحف الحقيقية بانبائهـــا وتعليقاتها ومقالاتها الدعائية وأبوابهـا المسرحية وأخبارها الرياضية والاعلانات وعندئذ أخذ الخوف ينتاب مديرى الصحف من خطر منافستها لصحفهم وحاولوا التدخل كى يجعلوا اخبار الاذاعات موجزة . . أو يؤخروا موعد النشرات الاخبارية حتى تصدر صحفهم . .

الفصل التاسع

خلال حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥

ها نحن نعود مرة أخرى إلى الحديث من جديد عن الصحافة خلال فترة مؤلمة من فترات الحرب فمنذ سبتمبر سنة ١٩٣٩ عادت الرقابة إلى الوجود وخضعت الصحافة من جديد للحجر الذى فرضته عليها السلطات المدنية والحربية . . وقد نص المرسوم بقانون الذى استصدرته حكومة دلادييه فى ٢٤ مايو ١٩٤٠ فى المادة الأولى منه على أنه « خلال أعمال العدوان يتحتم لإصدار جريدة جديدة يومية أو دورية الحصول على ترخيص يمنحه وزير الداخلية ووزير العدل ووزير المالية » ..

ومنذ توقيع الهدنة التى فاجأت البلاد فى قسوة فى يونيو ١٩٤٠ بدأت بعض صحف باريس وبعض صحف الاقاليم المحتلة فى العودة إلى العمل رويدا رويدا .. وفى الظهور من جديد .. وكان من الطبيعى أن تكون خاضعة مطيعة للسلطات العسكرية الألمانية ولما تفرضه من رقابة وتنشر أوامرها وتخضع لها ما يتبقى عندها من أنباء . .

وفوق ذلك كان ممثلو الصحف الباريسية «يدعون» إلى مؤتمرات

صحفيه في السفارة الألمانيه حيث كانوا يزودون بالتعليقات التي ترمي إلى استكمال مهمة مكتب الدعايه الألماني وكانت تقدم اليهم بالشطائر والنبيذ الفاخر طبقا للطريقه التقليديه في لف اليد الحديديه في قفازات من حرير ..

ولم تكن الصحافة في المنطقة غير المحتلة تتمتع بحرية تزيد على ذلك كثيرا وكان الفارق الوحيد هو سهر حكومة فيشي على ألا يظهر في الصحف الفرنسية ما يسيء إلى الفاتحين .. ولكن هذه الحكومة كانت ترغب في الوقت نفسه في ايهام المحيطين بها والفرنسيين القاطنين في المنطقة التي كانت تسمى بالمنطقة الحرة أنها ليست مستعبدة بالدرجة التي كان عليها الخاضعون « للاحتلال » في باريس والمناطق الأخرى .. ولذلك كان على الحكومة أن تراقب ايضا الصحافة الواردة من المناطق المحتلة ومن العاصمة بصفة خاصة ..

ومن ثم قام بعض الصحفيين بصفة غير رسمية طبعا ، بمهمة البقاء في باريس والاتصال بزملائهم لأرشادهم إلى الحدود التي يكتبون فيها حتى لايتخطوا المدى الذي قد يتعارض مع المناورات الحرجة يقوم بها رجال فيشي . وكانت الصحف الباريسية التي لاتراعى هذه التوصيات تصادر على خطوط الهدنة ولا يسمح لها بالدخول إلى المنطقه ...

وفي الوقت الذي تم فيه نزول القوات الفرنسية في أفريقيا

فى (نوفمبر ١٩٤٢) وامتـد فيـه الاحتـلال حتى شمـل فرنسـا بأسرها توحدت الرقابة على الصحف فى البلاد كلها بحيث اصبحت جميع مكاتب الرقابة التى ظلت فرنسية حتى ذلك الحين تحت أمرة موظف المانى.

ولم يكن الفرنسيون ليقنعوا بوسائل الأعلام المشتبه فيها التى كانت مصدرا للصحافة فى بلادهم فتحولوا فى الحـال لأستقاء الإخبـار من الاذاعات الأجنبية . . وكان الاستماع لهذه المحطات ممنوعا بصفة رسمية ولـكن عددا كبيرا من الفرنسيين كانوا يخالفون هذا الأمر ويواظبون على سماع جميع نشرات الأخبار المذاعة من لندن ونيويورك وسويسرة فكانت العبارات الروحيـة : « هنـا لندن ، فرنسيون يتحدثون إلى فرنسيين » لا تغيب عن ذاكرة كثير من المستمعين الذين امتنعوا خلال أربع سنوات عن قراءة الصحف . .

وكانت موجات من الطائرات تمر بين الفينة والفينة لتمطر المنطقة بسيل من منشورات الدعاية الأنجليزية أو الأمريكية . .

ثم انتظمت المقاومة السرية شيئا فشيئا فى فرنسا وكان من اسلحتها الصحافة التى كانت تحرر وتطبع وتوزع وتقرأ فى الخفاء . .

وقد بلغ المطبوع من هـذه الصحف فى بعض الأحيان مائة ألف نسخة شهريا ويقدر عـدد قرائها فى نهاية عام ١٩٤٣ بمليون ونصف مليون فرنسى كانوا يتبادلونها تحت المعاطف . .

وعلى قدر زيادة الأمل فى قرب ساعة التحرير أخذت الصحافة السرية تزداد قوة . وتألف لها فى سبتمبر ١٩٤٣ اتحاد بات يعمل فى اتفاق مع المجلس القومى للمقاومة وضم فى ابريل من عام ١٩٤٤ ثلاث عشرة صحيفة سرية . .

ومنذ ١٨ أغسطس وهو اليوم السابق لثورة الشعب الفرنسي على الاحتلال لم تظهر صحيفة واحدة فى العاصمة الفرنسية . . وكان المحررون قد تقاضوا مكافآتهم عن الخدمة السابقة بواقع مرتب ثلاثة أشهر . وفى مساء يوم ١٩ توجه صحفيو ماقبل الحرب إلى دور الصحف القديمة ولكن حدثت غارة عاقتهم عن مواصلة العمل كما كانت مصفحات تيجر قد توجهت إلى حى الصحافة . .

وفى اليوم التالى الموافق ٢٠ أغسطس أخذ الصحفيون طريقهم إلى شارع مونمارتر بينما كانت معارك الشوارع آخذة فى الشدة على الرغم من الهدنة المزعومة . . وحررت فى المساء بعض الصحف ولكن انقطاع التيار الكهربائى وانعدام المواصلات ووجود عقبات فنية أخرى حالت دون خروجها من المطابع وبقيت فى صورة سلخ . وقد ظهرت مع ذلك فى يوم الأثنين ٢١ أغسطس فى فترة بعد الظهر اعداد من الصحف الممنوعة منذ ١٩٣٩ ومنذ ١٩٤٠ أو التى اختفت بعد ذلك .

« وفى يوم ٢٢ أغسطس ظهرت الصحف علانية عند التحصينات فى أيدى الثوار الوطنيين . . وقد لاحظ جمهور القراء والدهشة تعلوهم أن عددا من رؤساء التحرير والمحررين حلالهم توقيع مقالاتهم تحت سمع الألمان الذين كانوا مايزالون مسيطرين على باريس وذلك باضافة اسمائهم الحقيقية إلى الأسماء المستعارة التى انتحلوها خلال المقاومة السرية . وتعد هذه الفترة بمثابة العصر الذهبى للصحافة الفرنسية ..

ثم توجه الصحفيون فى جماعات إلى دور الصحف ومكاتبها ومصانعها واحتلوها دون استئذان .. » (١)

---

(١) نوبل جاكار : أربع سنوات من تاريخ الصحافة الفرنسية . .

الفصل العاشر

صحافة الجمهورية الرابعة

ظهـــرفى ٢٦ أغسطس من عام ١٩٤٤ غداة تحرير باريس منشور لتنظيم الصحافة وقد أهتمت الحكومة المؤقتة كل الاهتمام بمنع الصحف من أن تستغل للمآرب الشخصية . ولذلك حتمت نشر أسمـــاء مديرى الصحف .. واشترطت ألا يكونوا من التجار أو رجال الصناعة . . كما اشترطت أن يكون أصحاب الصحف والمساهمون فيها وأعضاء مجالس الإدارة المنتدبون والممولون من الفرنسيين .. ومنعت منعا باتا اخفاء كل ماله صفة الأعـــلان وحرمت قبول مساعدات من دول أجنبيـة وكتابة الأعلانات المالية فى صيغة أخبار ..

ويعتبر القرار الصادر فى ٢٠ أغسطس والقانون الصادر فى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٤ بمثابة الخطوات الأولى لما سمى « بالتطهير » ..

المادة الأولى ـ محظور فى الحال والمستقبل نشر :

١ ـ كل صحيفة أو دورية ظهرت بعد ٢٥ يونيو ١٩٤٠

٢ ـ كل صحيفة أو دورية كانت موجودة قبـل ٢٥ يونيو ١٩٤٠ واستمرت فى الظهور اكثر من خمسة عشر يوما بعد أعلان الهدنة فى

الأراضى التى كانت تتكون منها المنطقة الشمالية خلال أيام احتلال الأعداء للبلاد وكذلك تلك التى استمرت فى الظهور اكثر من خمسة عشر يوما بعد ١١ نوفمبر ١٩٤٢ فى اراضى المنطقة الجنوبية .

المادة الثالثة : يسرى التحريم على استخدام الأسماء القديمة ويحرم كذلك على أصحاب هذه الصحف ووكلائها ورؤساء تحريرها وأعضاء مجالس رقابتها استخدام مبانيها وأدواتها وكل ماعدا ذلك من وسائل تدخل فى تكوين المنشأة ..

المادة الثامنة ـ ابتداء من أول يوليو ١٩٤٥ يحرم على كل صحفى محترف، المساهمة على أى نحو من الانحاء فى نشر أى صحيفة أو دورية سواء أكانت مطبوعة أو مذاعة أو الأشتراك فى نشاط أى وكالة أنباء إلا اذا كان حاصلا على بطاقة صحفية جديدة ..

وقد صدرت مواد تكميلية للقانون فى ٢٥ نوفمبر ١٩٤٤ على هذا النحو :

المادة الأولى ـ يعهد بالممتلكات المعينة فى قانون ٣٠ سبتمبر إلى مصلحة الأملاك والتسجيل ..

ثم توالت القوانين والمراسيم والأوامر ففى ٧ يناير سنة ١٩٤٥ انشئت اللجنة الاستشارية للصحافة وعهد اليها بابداء الرأى فى حصص الورق وكمية المطبوع وشروط التوزيع وفى تقليل حجم الصحيفة أو زيادته ..

وفى ١٧ فبراير حرم على محوبات استخدام اسماء الصحف المغلقه ..

وتعقب القانون الصادر فى ٥ مايو ١٩٤٥ المؤسسات الصحفية ودور النشر والاعلام والاعلان المتهمة بالتعاون مع الاعداء فعرفها واحصى بالتفصيل الدقيق ماقامت به من أعمال تدخل فى حدود هذه الجريمة كما حدد بدقة وسائل القمع وكانت عقوبة هذا العمل هى الحل ومصادرة الاموال لصالح الدولة ..

وفى ١٥ يونيو ١٩٤٥ الغيت الرقابة السابقة للنشر . والواقع أن هذه القوانين على أهميتها كانت تنسحب على ماضى الصحافة الفرنسية اكثر مما تنسحب على مستقبلها ....ومن ثم بدت الحاجة لتشريع جديد كامل، وهو ماتناوله القانون الصادر فى ١١ مايو ١٩٤٦ .. فقد نظم هذا القانون قواعد نقل ملكية المؤسسات الصحفية التى مارست نشاطها أثناء الاحتلال إلى الدولة .. ونص الباب الثالث من القانون المذكور على انشاء مجلس أعلى للمؤسسات الصحفية ..

والحق أن الحكومات المتعاقبة التى سنت هذه القوانين وعرضتها أو لم تعرضها على البرلمانات (المؤقتة أو غير المؤقتة) كانت تستجيب لأمرين ؛ أولهما القضاء على الصحف التى ظلت طوال أربع سنوات منبرا لنشر دعاية العدو وثانيهما تهيئة سبل العيش للذين لاقوا الصعوبات فى القيام بالخطوات الأولى خلال العمل السرى فاستحقوا بذلك أن

يحتلوا مكان أولئك الذين اختفوا ..

وكان لابد لهذه الاجراءات من أن تتخـذ حتى لاتعود الصحـافة الجديدة فتقع تحت سيطرة ممثلى الدوائر المالية الذين طالما أفادوا فى ظل الجمهورية الثالثة . وكانت هذه نظرية حـكومات اليسـار التى كانت تسيطر على الحـكم حينذاك ..

ولـكن معارضيهم من السياسيين ردوا على هـذه النظرية بأن الأمر قد تعدى مجال القانون إلى مجال الاستبداد وأن مبدأ رجعيـة القوانين الجنائية مبدأ غير عادل وأن المسؤلية الجنائية للاشخاص المعنوية مسألة مستحدثة جديرة بالمناقشة وأن الهدف من وراء هـذه السياسه كلها هو تأميم الصحافة ..

وقد عقد اتحاد الصحـافة (١) فى اكتوبر ١٩٤٤ مؤتمراً عاما فى جو من الحماس .. وقررت الجمعية العمومية بالاجماع ضرورة « اتخاذ إجراءات فى أقرب فرصة للحيلولة دون السماح لأى جمـاعة من الرأسماليين أيا كانت أن تعرض للخطر كيان الصحافة الوطنية ولضمان توفير الأمكنة والأدوات التى تحتاج اليها هذه الصحافة . »

---

(١) اتحـاد الصحافة السرية وكان يضم خمس نقابات تمثل أكبر مجموعة للصحف الفرنسيه. وقد أسس جماعة من مديرى الصحف رابطة الصحافة المستقلة لينضم اليها كل من لا يرغب فى الأنضواء تحت لواء الاتحاد القومي للصحافة . .

وحلت كتلة الصحف الفرنسية (التي سميت فيما بعد باسم مساجيري فرانسيز دولا بريس) محل مساجيري هاشيت . . وقامت وكالة فرانس بريس (وكالة فرنسا للانباء) بتداول الأنباء الطيب منها والسيء . .

وظهرت الصعوبات المادية مع مطلع عام ١٩٤٥ واشتدت ازمة الورق .. فكانت جملة المستهلك منه في فبراير ٩٠٠ر٢ طن بدلا من ٠٠٠ر٤٠ طن كانت تستهلك شهريا عام ١٩٣٨ .. وقد عمدت الحكومة إلى تخفيض حجم الصحف إلى النصف مع تخفيض سعر النسخة من فرنكين إلى فرنك ونصف فرنك ..

ثم عاد الورق إلى الظهور قليلا ولكن مديري الصحف لم يستطيعوا الحصول على الكميات الكافية بالسعر الرسمي فكانوا يدفعون من ٨٠ إلى ١٠٠ فرنك للكيلو بدلا من ٤٠ فرنكا .. كما كانوا يدفعون في ديسمبر . .

وشنت الصحافة حملة ضد اساءة استخدام السلطة .. ودعا اتحاد الصحافة إلى عقد مؤتمر في يومي ٢١و٢٢ أغسطس وعلم المؤتمرون بمزيد من الارتياح أن الوزير لن يكون بعد ذلك الحكم الوحيد في منح أو رفض الترخيص للصحيفة وسيكون للاتحاد رأيه في هذا الشأن .

وفي عام ١٩٤٦ احتج البعض من فوق منبر الجمعية الوطنية على

طريقة منح التراخيص فى حين أن الوزير كان قد منح أكثر من مائتى ترخيص خلال عدة أسابيع . ولكن قلة الورق دعت وزيراً آخر إلى الغاء تراخيص حوالى عشر صحف لانها تخطت الكميات المخصصة لها من الورق باكثر من خمسين فى المائة .

وينبغى أن نذكر أن مجرد الحصول على ترخص بالصدور لم يكن وحده يكفى لأن يهب الصحيفة حياة رغدة .. فقد تضاعفت أسعار الورق وزادت أعباء الحياة الاجتماعية زيادة ملحوظه وارتفعت أثمان الطباعة ارتفاعاً كبيراً وتضاءلت حصيلة الاعلان تبعا لهبوط الحالة الاقتصادية وكان من نتيجة رفع سعر الجريدة ذات الأربع صفحات إلى أربعة فرنكات ان قلت المبيعات بنسبة ٥ ٪ ..

وفى ينـاير سنة ١٩٤٧ سقطت أكثر من ثلاثين صحيفة وزادته إضرابات العمال فى خطورة الموقف فاختفت خلال شهرى أبريل ومايو حوالى اربعين صحيفة ..

وفى عام ١٩٤٨ استمرت موجة الارتفـاع فى أسعار الورق والأجور والتوكيلات وفى سعر البيع الأمر الذى ترتب عليه فقدان عدد من القراء لأن نمو صحافة الاقاليم كان يؤثر بشكل ملحوظ فى نشاط الصحف الباريسية .

وأما المشكلة الأخرى التى مافتئت ماثلة أمام السلطات فهى تصفية ممتلكات وديون الصحف التى ظهرت خلال فترة الاحتلال وكان

الاهتمام بهذه المسألة قد بدأ حتى قبل أن يتم التحرير ووضعت التنظيمات السرية مشروعا فى هذا الصدد ..

وقد حددت النشرة المسماة « كاييه بلو : الكراسة الزرقاء » التى وزعتها فى مستهل عام ١٩٤٤ السكرتارية السرية العامة للاعلام ، الاجراءات التي ستتخذ لإنشاء صحافة جديدة خلال اللحظات الأولى للتحرير ..

وقد مكنت من هذه الاجراءات تلك القوانين المختلفة التى سنتها الحكومة المؤقتة فى بادىء الأمر فى الجزائر ثم بعد ذلك عند استقرارها فى باريس .. وسمحت بنقل ملكية المنشئات الصحفية القديمه لصالح المؤسسات الجديدة ..

على أن هذه العملية لم تسر فى طريقها دون أن تثير صعوبات كبيرة حاول وضع حدلها ذلك القانون الصادر فى ١١ مايو ١٩٤٦ ولم تتم الموافقة على هذا القانون إلا بعد مضى ثلاثة أيام فى نقاش عنيف .. ويؤكد القانون مبدأ زوال الصحف التى كانت موجودة قبل الحرب ثم وضعت نفسها تحت تصرف العدو .. واستولت الدوله على ممتلكات هذه الصحف بشرط تعويض أصحابها غير المدينين بهذه التهمة وبشرط أن تبع هذه الممتلكات على آجال قصيرة أو طويلة للذين يستخدمونها .. « وهنا يمكن القول أن قانون ١١ مايو ١٩٤٦ ضرب من التأميم[١] »

(١) ريمون ميلية (لوموند) .

أما الرد على النقد الذى يمكن أن يوجه إلى القانون فهو أن المشرع حين وضعه رغب فى تنظيم مرحلة الانتقال بين الماضى والمستقبل دون ايجاد نوع من الاحتكار لحرية الرأى والتعبير .. هذا وقد تم اعداد كثير من مشروعات القوانين الخاصة بالصحافة ولكن نظراً لأنه لم تتم المصادقة بعد على أى من هذه المشروعات وبالتالى لم يدخل أحدها كما نقول فى ذمة التاريخ ، الذى نعنى به ونسجله فى هذا الكتاب ، فمن العبث أن نتناولها بالتعليق ..

غير أنه يمكننا القول أن هذه المشروعات المختلفة كانت تهتم كبير الاهتمام بمنع الصحافة الفرنسية من أن تخدم المصالح المالية الخاصة أو الأجنبية ومن أن تحيد عن جادة الصواب أو تسىء استخدام الحرية . وسوف يكشف لنا المستقبل عن مدى النجاح الذى سيتحقق فى محاولة التوفيق بين هذه الرغبة الملحة فى تدعيم المثل وبين الصعوبات المادية التى تواجه وتصارع المؤسسات الصحفية الحديثة ..

وفى انتظار صدور التشريع الذى سيحل محل التشريع المؤقت عهد إلى الدولة فى ادارة أموال وممتلكات الصحف القديمة .. ثم نص قانون ١١ مايو على انشاء الشركه الأهليـــة للمؤسسات الصحفية لادارتها . وقامت هذه الشركه بالعمل على نقل وتحويل الممتلكات إلى المؤسسات التى تستخدمها . ولكنها لم تستطع عمل شىء بصفة نهائية قبل أن تتم الموافقة على القانون .

والواقع أن الصحافة الفرنسية فى عام١٩٤٨ كانت فى حالة احتضار للأسباب الآتية :

فى عام ١٩٤٨ زادت أجور نقـل الورق والصحف والجـرائد غير المبيعة (المرتجعة) بالسكك الحديدية أربعة وعشرين مرة عما كانت عليه فى سنة ١٩٤٠ ..

وزادت الأجور والالتزامات الاجتماعية احدى عشرة مرة عما كانت عليه فى ١٩٤٠ . . وذلك خـلاف « الاكراميات » وساعات العمل الاضافية .

وزاد سعر لفات الورق اثنتى عشرة مرة فى عام ١٩٤٨ عن عام ١٩٤٠ واصبح اخراج جريدة يومية تطبع ٨٠٠٠٠ نسخة من أربع صفحات يزيد فى التكاليف ثلاثين مرة فى عام ١٩٤٨ عن عام ١٩٤٠ بينما كان يطبع نفس العدد منها فى ست صفحات . .

وأصبحت الجريدة اليوميـة تباع بسعر يزيد ست عشرة مرة عما قبل . فبات سعرها ثمانية فرنكات بدلا من نصف فرنك . .

وقلت حصيلة الاعلانات على أثر قانون حكومة فيشى بمنع الاعلان عن المستحضرات الطبية وبعض أنواع السيارات بنسبة ٨٠ ٪ عما كانت عليه فى سنة ١٩٤٠ والمعروف أن حصيلة الاعلان تؤلف نصف ميزانية الجريدة على الأقل . .

وكانت هذه هى الأسعار الرسمية وكان على الصحافة ليس لمجرد قبولها

فحسب بل وعقد اتفاقات أخرى باهظة الثمن مثل اطالة مدد الأجازات المدفوعة ودفع الشهر الثانى عشر من المرتبات مضاعفا وما إلى ذلك . .

وقد أدت كثرة المصروفات وقلة القراء إلى زيادة خطورة حالة الصحافة مما أدى بمديريها إلى التوجه إلى الحكومة لمطالبتها بتخفيض سعر الورق والمداد والنقل والبريد ولكن الحكومة اجابت على هذا الطلب بقولها أنه يعنى تقديم معونة للصحافة مما يتناقص مع مبدأ استقلال الصحافة الذى ووفق عليه بالاجماع . .

ولئن كنا قد أطلنا الحديث عن الظروف المادية للصحافة الفرنسية فى السنوات التى اعقبت التحرير والتى جاءت بعد الحرب فلأن هذه الظروف كان لها أثرها الواضح على تطور الصحافة والتحرير وفنون التقديم . .

وتقدم الاذاعة الفرنسية مثلا لذلك فى المناقشة التى اذاعتها فى اكتوبر ١٩٤٨ على مستمعيها حول الصعوبات التى تعترض القيام بتحقيقات صحفية على نطاق واسع . . وقد اشترك فى المناقشة عدد كبير من « كبار » المحققين الصحفيين . . وكان مجرد وجودهم جميعا فى باريس يدل على انهم يعانون أزمة حقيقية . . وقد اتفقوا جميعا على أن ضيق حيز الصحف وارتفاع تكاليف السفر وصعوبة الحصول على التأشيرات اللازمة للمرور عبر الحدود وصعوبة تحويل النقد تقف حائلا دون

تأديتهم لواجبهم على نحو مرض .. وقد حاولت بعض الصحف التغلب على هذا النقص فى التحقيقات الصحفية أرضاء لنهم قراءها واشباعا لفضولهم وأرضاء لحب المسائل المثيرة ، عن طريق العناوين الضخمة والصور الكبيرة وتنظيم الصفحات على نحو مبتدع ولكنها فى كل هذا كانت تخلو من الروح ..

هذا ، ولا ينبغى الاعتقاد بأن الصحافة الفرنسية كانت هى وحدها التى تعانى من هذه الصعوبات بل كان ثمة صحف أخرى تمر بالمرحلة نفسها وهذا هو الدليل :

« نيويورك فى ١٣ ابريل ١٩٤٨ (رويتر) ـ صرح لورد روذرمور صاحب الصحف الانجليزى المعروف عند وصوله على ظهر السفينة « كوين اليزابيث » للصحفيين بقوله : أن مالدى بريطانيا من ورق الصحف بلغ درجة من القلة لم يبلغها فى أى وقت مضى .. ونأمل فى استيراد كميات كافية منه فى العام المقبل حتى تتمكن الصحف من الاستمرار فى الظهور بصورتها الحالية أى فى أربع صفحات ، ونحن لا نفكر حاليا فى ظهور الصحف فى اكثر من هذا العدد من الصفحات .. »

وثمة دليل من مصدر آخر ، فقد أعلن رئيس تحرير أحدى المطبوعات النمساوية أن مجلس الادارة عمد إلى شراء غابة فى المنطقة الروسية على امل انتاج الورق الذى تحتاج اليه فى المستقبل ..

ولما كان أمر هذه الغابات غير ميسور فى يد معظم مديرى الصحف فقد اتجهوا جميعاً نحو كندا . والمعروف أن كندا تقدم اكثر من نصف انتاج العالم الكلى من ورق الصحف . واليك الارقام ، فقد انتجت كندا فى عام ١٩٤٦ ٠٠٠ر٤٣ر٤ طن من الورق وفى عام ١٩٤٧ انتجت ٠٠٠ر٤٠٠ر٤ طن ..

وكان مالدى بريطانيا فى يوليو ١٩٤٧ من مخزون الورق ٠٠٠ر ١٢٠ طن وفى يوليو ١٩٤٨ كان لديها ٠٠٠ر٨٠ طن وكانت الصحف البريطانية قبل الحرب تشترى من كندا وجزر اسكنديناوة ورقا قدره مليون و ٠٠٠ر٢٤٥ طن فى السنة .. وقد هبط هذا الرقم عام ١٩٤٨ إلى ٠٠٠ر٣١٥ طن ..

ويعتبر هذا التخفيض الملحوظ فى حجم الصحف الانجليزية ، التغيير الوحيد الذى جاء نتيجة طبيعية لما جرى من أحداث .. وقد ظلت الصحف الانجليزية الكبرى ملكا لكبار أصحاب رؤوس الاموال أو سلالتهم .

وتستأثر باهتمام جمهور القراء من الانجليز أربع صحف شعبية هى : الديلى ميل ، والديلى اكسبريس ، والنيوز كرونيكل ، والديلى هيرالد ..

وتتنافس كلها للاحتفاظ بقرائها عن طريق طرافة التحرير والتجديد فى التبويب ومع ذلك هناك صحف أخرى محافظة على طابعها القديم مثل التيمز التى تملأ صفحتها الأول بالاعلانات الصغيرة دون

عناوين مثيرة أوصور كبيرة. والمانشستر جارديان التي تحرص كل الحرص على الاحتفاظ بقرائها وهي تبدأ بصفحتين من الاعلانات وهو ما يوازي ربع حجمها ثم تستمر بعد ذلك في صف أخبارها ومقالاتها الواحدة تلو الأخرى دون أي مجهود أو تنسيق فني . ولم يعد يصدر في لندن الآن سوى ثلاث صحف مسائيـة بدلا من ست ..

وقد نشأت في حي الصحافة ، فليت ستريت في لنـدن الذي حظي كغيره بنصيب وافر من القنابل أثناء الحرب، روح عالية في التضامن ، إذ أفسحت دور الصحف التي لم تصبها القنابل صدرها للذين حطمت دورهم حتى تسمح لصحفهم باستمرار الظهور ..

ولم تبلغ الحـال في الولايات المتحدة هذه الدرجة وإن كانت أزمة الورق قد أصابت المؤسسات الصحفية ولكن على نحو يقـل في الخطورة .. ويقدر العجز في أوائل عام ١٩٤٨ بحوالي ٢٣٥٫٠٠٠ طن في العام .. وكذلك ارتفعت أسعار الورق على نحو ملحوظ ..

ومع ذلك نجد في الولايات المتحدة صحفا تصدر في ٣٦ صفحـة وهو رقم يداعب أحلامنا . كما تصدر بعض المجلات في يوم الأحد في مائتين و ثلاثمائة صفحة .. وتتناسب الاعلانات مع هذه الحجـوم الضخمة حيث نرى عشر صفحات مخصصة للاعـلان عن أحـدى المؤسسات الكبرى .

وهناك ظاهرة جديرة بالذكر هي تركيز الصحافة بين ايدي مديري

التكتلات الصناعيـة وهم الذين دأبوا على شراء المؤسسات مما ترتب عليه نقص عدد الصحف . .

وأخيرا يجب أن ننوه عما عرف عن الصحفيين الأمريكيين من حياد كبير ومع هذا فان ذلك لم يشفع لهم فى التأثير على الرأى العام فى المجال السياسى على الأقل ، إذ المعروف أن ٩٠ ٪ من الصحف كانت مناهضة للرئيس روزفلت عند انتخابه وعارضت ٨٥ ٪ منها فى ترشيح الرئيس ترومان . .

هـذا ويبدو أن مشاكل الصحافة العالميـة قد تزايدت فى عصرنا هذا . . فقد عقـدت الامم المتحدة مؤتمرا يوم ٢٣ مارس ١٩٤٨ فى جنيف لحرية الاعـلام ، وبعد مضى ثلاثة أشهر ، أى فى ٢٣ يونيو اجتمع فى باريس ممثلو الهيئات القوميـة لرؤسـاء تحرير الصحف وأصحابها من عشر دول أوربية ومن الولايات المتحدة فى هيئة مؤتمر تأسيسى لتأليف اتحاد دولى لناشرى الصحف والمطبوعات . .

وفى ٢٥ أغسطس تألفت ثلاث لجان لدراسة ما تحتاج اليه الصحافة والاذاعـة والسينما فى النواحى الفنيـة ولتقديم « المساعدة للدول التى عانت من الحرب والتى ليس لديهـا من المعدات ما يكفى لتوفير التربية للجماهير . . »

كل هذا يوحى بمستقبل عظيم للصحافة فى العـالم ويبشر بدفعها فى طريق تطور جديد وذلك عند ما تتحقق لهـا فى كل دولة الظروف المواتية لحياة مستقرة .

خاتمة

نحن موقنون أن الصحافة ليست مهددة بالفناء ولن تفنى على الرغم من أنها قديمة العهـــد وعلى الرغم من موجات التشاؤم الناشئة عن الظروف العصيبة التى عانت منها .. والواقع أنه لا يمكن أن نتصور الانسانية بدون صحف على الرغم من أن سانت بوف قد قرر أنه كان يشاهد عهد انهيار الصحافه ..

بل على النقيض من ذلك فاننا نتوقع ازدهـــار وسائل الأعلام وتطورها بصورة هائلة إذ أن شواهد الماضى تسمح لنا بالاعتقاد بان كل تقدم فى المجـال العلمى أو الصناعى سوف يخدم وسائل الأعـلام ويساعد على تقدمها كما يؤدى إلى انتشار الصحف ..

ولعلنا قد اقتربنا جدا من مرحلة سيتمكن خلالها البشر فى كل بقعة على سطح الأرض من تلقى رسائل يومية من القمر والـكواكب الأخرى وسوف يرى الناس ذلك امرا طبيعيا فى وقت قريب ..

وثمة كلمة أخيرة يجدر بنـا قولها وهى أننا رأينا كـثيرا من الحـكومات والبرلمـانات والأحزاب السياسية تعلن حرية الصحـافة وتطالب بها فى صورة تشعر بسمو الهدف وقدسية المبدأ .

والحق أن الصحافة كاغلب الهيئات الأخرى مرتبطة ارتباطـــا

قويا بضرورات معينة تفرض عليها دون أن تحكمها حدودا وتطالبها أحيانا بالصمت .

فهل من المعقول أن يشعر الصحفى بحرية مطلقة إزاء مصادر انبائه ! انه حر من الناحية النظرية البحته ولكن محرر الصحيفة الحكومية مثلا هل يفكر فى التعليق بالنقد على بعض الأنباء فيطيح بمصادر أخباره ! ومن ناحية أخرى ، الن يتردد الصحفى المعارض فى مدح اجراء قامت به الوزارة التى يناهضها ! . سوف يخشى فقدان ثقة قرائه ..

وليس من شك فى اضطرار رئيس التحرير إلى التفكير فى الحرص على قرائه وإن كان هذا لايعنى أن الصحف اليومية أو الدورية ليست الا ثبتا للاكاذيب المغرضة .. ولكن من المستحيل فى الوقت نفسه أن تكون لمحررها من حرية الفكر مايستوى مع تلك التى يتمتع بها الكاتب الروائى أو المسرحى ..

والمعروف أن كل جريدة تقوم عليها مجموعة من المحررين ، ولا مراء فى أن روح الجماعة ومقتضيات النظام حتى فى حالة مراعاتها عن طيب خاطر تقتضى بعض القيود التى تحد من الحرية المطلقة لكل محرر على حدة .. فالجريدة التى تحرر فى الأقاليم وتوزع فى الأرياف لايجب عليها أن تشير إلى مايسىء إلى عادات الفلاحين وتقاليدهم . أما

الجريدة التى يقبل على قراءتها العمال القاطنين بالمدن فينبغى الاحتجاج على صفحاتها ضد ارتفاع أسعار المنتجات الزراعية ..

هذا عدا الاشارة إلى الصحف التى تنطق باسم الأحزاب السياسية التى تتبع خطوطا سياسية مرسومة دون أن تحيد عنها قيد أنملة ..

وقد رأينا عند مناقشة تشريعات الصحافة مدى التمسك بابعادهـا عن سيطرة رأس المال ، وهو الأمل الذى يتمنى كل فـــرد تحقيقه .. والمسألة هى كيف يمكن أن نضمن للصحافة حياتها التى تكلف غاليـاً دون أن تصبح بطريقة أو بأخرى اداة لرؤوس الأموال ؟

وبالاختصار نرى أن المشكلة تنحصر فى أن تعيش الصحافة بعيداً عن الاعانات الحكومية التى تجعل منها اداة شبه رسمية وعن تمويل أصحاب رؤوس الأموال الذين سيحاولون استخدامها فى سبيل مصالحهم الذاتية وعن رفع سعرها للجمهور على نحو يجعله ينفر من شرائها .

وتاريخ الصحافة سلسله من المعارك المتصلة ضد السلطات العـــامة التى كانت تخشى الصحافة حينا وتخذلهـــا حينا أو تستخدمها فى بعض الأحيان .. وقد أدى هذا النضال فى القرن العشرين إلى حق كل شخص فى اصدار جريدة بشرط حصوله على ترخيص من الوزير باستهـلاك كمية من الورق فى حدود التعليمات واخراجها فى صورة معينة وبسعر محدود.

وتاريخ الصحافة كذلك عرض للتطور الدائم للآلات والوسائل الصنـاعية والفنية التى مكنت الصحافة من أن تصبح من أقوى أدوات البشرية وأكثرها شيوعا ..

صدر من كتب العلوم الانسانية فى مجموعة الألف كتاب

(اجتماع ، اقتصاد ، تربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ، جغرافيا رحلات ، دين ، سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة)

الكتاب		المؤلف
١ — تفسير القرآن	تأليف	
٢ — حضارة الاسلام	«	جوستاف ، جرونيباوم
٣ الفكر الخوالد	«	مولاى محمد على
٤ — اتجاهات الفلسفة المعاصرة	«	أميل برهييه
٥ — البوليس والكشف عن الجريمة اليوم	«	رجنالدموريش
٦ — سكتلنديارد	«	سير هارولد سكوت
٧ — الحياة العامة اليونانية	«	ا . ا . زمرن
٨ — فلسفة الخير	«	لويس دكنسن
٩ — رجال ذللوا الصحراء	«	رتشى كولدر
١٠ — حركات الشباب	«	الصاغ الدكتور محمد فتحى
١١ — بلاد مابين النهرين	«	ل . ديلابورت
١٢ — بسمرك	«	أميل لدفيج
١٣ — آثار حضارة الفراعنة	«	الاستاذ محرم كمال
١٤ — الحياة الناجحة	«	اوستاس تشسر
١٥ — كيف تقرأ الجريدة	«	ادجار ديل
١٦ — الحياة اليومية فى مصر القديمة	«	الن شورتر
١٧ — الديانات فى أفريقيا	«	ه . ديشان
١٨ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة	«	ارنولد جزل

١٩ ـ علم نفسك الاقتصاد	تأليف ايفلين توماس
٢٠ ـ حضارة مصر والشرق الأدنى	
٢١ ـ تاريخ العالم من ١٩١٤ – ١٩٥٠	« دافيد تومسون
٢٢ ـ التاريخ الجغرافى للقرآن	« السيد مظفر الدين
٢٣ ـ نحو مجتمع أفضل	« برتراند رسل
٢٤ ـ الأحلام والجنس	« فرويد
٢٥ ـ تاريخ طابع البريد	« يوجان فاييه
٢٦ ـ تاريخ الجيوش	« جورج كاستلان
٢٧ ـ مصر القديمة	« جان تركوتيه
٢٨ ـ صحوة فريقيا	« بازيل دافيدس
٢٩ ـ الجريدة	« جورج فيل
٣٠ ـ الحرب بين الماضى والحاضر	« الأميرالاى محمد عبد الفتاح
٣١ ـ الانقلاب الصناعى	« ت.س. اشن
٣٢ ـ مرشد الآباء والأمهات ..	
٣٣ ـ مرجز تاريخ العالم	« هـ . ج . ولز
٣٤ ـ الحضارة العربية	« ى . هيل
٣٥ ـ دراسات فى المغرب والأندلس	« ى . ليفى بروفنسال
٣٦ ـ الإنسان والأخلاق والمجتمع	« ج.س. فلوجل
٣٧ ـ قصة الإنسانية	« فان لون
٧٨ ـ مدخل إلى علم الآثار	« السير ليونارد وولى
٢٩ ـ الجغرافيا والسيادة العالمية	« جيمس فيرجريف
٤٠ ـ الرحالة العرب	« الدكتور نقولا زيادة





الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر يناير 2018 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

نشرته
الدار المصرية للطباعة والنشر
١٠ ميدان التحرير ت ٢٤٧٧٠ الاسكندرية



الثمن ١٥ مـ

الدار المصرية للطباعة


Exclusive
For
www.ibtesama.com